٧

روايات احلام

غربَاء عَلى الطريق

www.elromancia.com

مرمورية

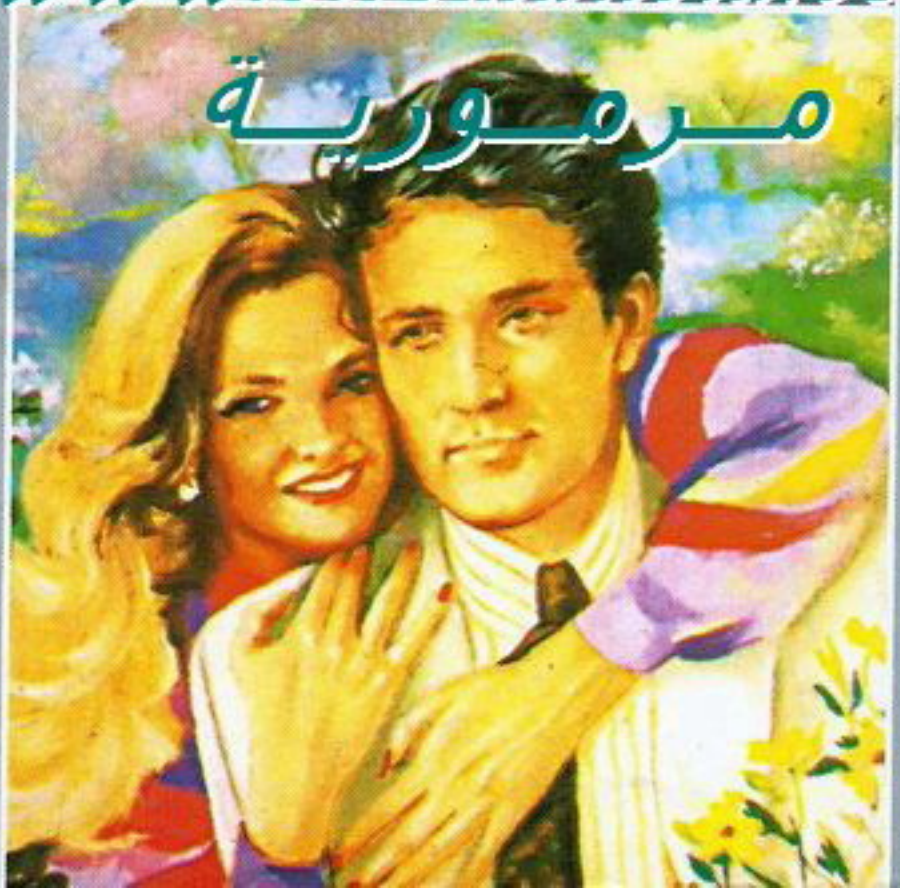

غرباء على الطريق

اندي سائق شاحنة يعمل لدى شركة لوكربي، كان قد تبع بروك أميالاً وأميالاً بشاحنته العملاقة، معيقاً طريقها، مسبباً لها ضيقاً وإزعاجاً.

لكنها عندما واجهته بالغضب قال لها: لا أستطيع مقاومة النساء.

ماذا تفعل بروك أمام إصرار هذا الرجل الواثق من نفسه المتسلط الذي اكتشفت حقيقة هويته أخيراً، فهو ليس أبداً سائقاً كما أوهمها؟

اكتشافها هذا أتى بعد فوات الأوان، فرغم رفض والدها له ورغم وجود سيلينا الجميلة في حياته، بروك وجدت أنها لن تستطيع الخلاص منه بعد أن وقعت في شراك حبه.

١ ـ السائق الأرعن

استمرت الشاحنة العملاقة في ملاحقة بروك عن قرب ورغم محاولاتها الجاهدة، لم تتمكن من معرفة سبب هذه المطاردة. سعت عيناها لإلقاء نظرة إلى السائق عبر المرآة الأمامية، ولكن كل ما استطاعت رؤيته كان الخطوط الحمراء للشاحنة المندفعة وراءها. فزجاج الشاحنة الأمامي أعلى بكثير من زجاج سيارتها مما جعل من المستحيل رؤية شيء. وكانت نافذتها مفتوحة على مصراعيها ليتسنى للهواء البارد التسلل إليها حيث راح يعبث بخصلات شعرها الأشقر المتطاير حول رقبتها، تاركاً لها شعوراً بالراحة من حر يوم الصيف هذا.

وأخيراً... قرّر السائق ترك المطاردة، فتنحى بالشاحنة عن الخط السريع من الطريق العام. وما أن وصلت الشاحنة إلى جانبها حتى التفتت بروك لترمق مَنْ سَبَّبَ لها كل هذا التوتر، فلا شيء أزعج من عملاق طرقات يلتصق بذيل سائق سيارة صغيرة، وكأنه وحش بري ينقض على فريسته محاولاً تثبيتها إلى الأرض. قطبت عن بُعد وعيناها تلتقيان بضحكة الرجل الساخر، الذي كان منذ أميال عديدة مصدر عذابها.

ودفعتها غريزتها إلى الشتم بعنف راجية أن يقدر هذا الأرعن على قراءة الشفاه، لكن عندما همّت بالشتم كان كل ما نطقت به هو «عليك اللعنة» وكان كل ما تلقته من ردّ ارتداد رأس الرجل إلى الخلف بضحكة ساخرة، ثم

تابع طريقه بسرعة حتى ابتعد عن ناظريها.

تنفّست الصعداء لأنها لن تراه ثانية، فهو يقود شاحنة فارغة، ومن المعروف أن كل سائقي الشاحنات الخالية من الحمولة يقودون بسرعة مذهلة كي يعودوا إلى مركزهم سعياً إلى حِمْل آخر يكسبون منه مالاً أوفر.

لم تنتبه لجفاف فمها والتواء معدتها إلا بعد أن وصلت إلى محطة خدمات تحتوي على مطعم ونزل صغير، ومحلات، ومحطة وقود، في هذه اللحظة علمت أن ذاك السندويش الذي تناولته منتصف النهار ما كان كافياً إطلاقاً كما اعتقدت.

جالت عيناها في ما حولها بعد أن ركنت سيارتها جيداً في الموقف، فشاهدت لوحة تشير إلى مساحة مخصصة لوقوف الشاحنات والعربات الكبيرة، ولمعت في ذهنها فكرة أن يكون سائق العربة العملاقة الحمراء قد توقف هنا لأخذ قسط من الراحة ووجبة طعام.

جعلتها الفكرة تتردد. ولكن، وبعدما أظهرت لها عيناها ما يمكن أن تقدمه محطة الخدمات هذه، فكرت في أنه لو توقف هنا لما اختار المطعم الفخم الذي وقفت تتأمله بل لاختار المقهى الصغير كما يفعل سائقو الشاحنات عادة.

كان المطعم أفخم مما توقعت، يشرف على خدمة زبائنه سقاة أنيقون، بينما المقهى الصغير يعتمد زبائنه على الخدمة الذاتية. وفي المطعم اضاءة ناعمة وستائر أنيقة ونباتات جميلة، وهذا كله، دون شك، سيرفع من ثمن الطعام فيه. اختارت بروك طاولة معدّة لشخصين في الوسط ثم شرعت في قراءة لائحة الطعام، فلمّا لاحظت الأسعار الباهظة كادت تتسلل باتجاه الباب.

المدخول المادي الذي يعينها ووالدها على العيش كان ضئيلاً جداً حتى لا يكاد يكفي لدفع ثمن فنجان شاي وخبز محمص وبعض المربى وربما

كعكة صغيرة.

تلقت الطلب منها ساقية جذابة، تضع مريلة بيضاء وثوباً أسود قصير. أحضرت الفتاة ملاءة ورقية مطوية فتحتها لتضعها أمام بروك على الطاولة. بعد أن انتهت رفعت الفتاة رأسها لتبتسم من فوق رأس بروك.

والتفتت بروك بعد ذهاب الفتاة في محاولة لاكتشاف من تلقى تلك البسمة منها... وهي بسمة دون شك كانت لرجل جذاب. أمّا الرجل الذي تلقى هذه البسمة فكان رجلاً ساحراً اكتشفت شدة سحره أثناء الطريق إلى هنا. فَتَحْتَ القميص وربطة العنق، التي لاحظت أمام دهشتها أنه يرتديها الآن، كان هناك عضلات مفتولة وكتفان عريضتان. إن هذا الوسيم الأسود الشعر، الأسمر القسمات هو من النوع الذي يمارس لعبة الغزل على الطرقات العامة متمتعاً بها.

بدت الأطباق الموضوعة أمامه من أفخر أنواع الأطعمة والشراب كان كذلك. أما الرجل فجلس وعلى وجهه ابتسامة تشبه تلك التي وجهها إلى السّاقية، لكن ابتسامته تلك كانت رداً على دعوة الساقية له أما هذه الابتسامة فهي متعجرفة ساخرة، لبروك.

أخفت بسرعة أي تعبير قد يعلو وجهها، ثم أشاحت وجهها بعيداً عنه بقوة حتى أحسّت بأن شعرها تطاير فوق كتفيها وبعد لحظات قليلة من تقديم ما طلبته وقفت الساقية قرب سائق الشاحنة... وركزت بروك اهتمامها على صب الشاي، ودهن الخبز المحمص بالزبدة، رافضة أن تسمح لرأسها بالالتفات إلى الوراء.

لكن، بعد أول قضمة استدار رأسها وكأنه عقرب الساعة، فراحت... ترمقهما... بدا لهما أنهما يعرفان بعضهما، ولكن إلى أي مدى، هذا ما لم تجرؤ بروك على التفكير فيه فسائقو الشاحنات، يقودونها إلى مسافات بعيدة، وهم بحاجة إلى الراحة والانتعاش... أوَ ليس معروفاً كذلك انهم

بحاجة إلى أشياء أخرى؟

وتصاعد الضحك، وانحنت الساقية لتمسح شيئاً عن سترة الرجل السوداء وسمعته يتمتم:

ـ انه الغبار... فقيادة الشاحنات عمل قذر...

تركته الفتاة لتهتم بالزبائن، فعادت من جديد نظرة الرجل لتحطّ على بروك، عندها فقط أدركت كم كانت تمعن النظر إليهما فاصطبغ وجهها بنار الخجل أما هو فازدادت ابتسامته اتساعاً وسخريته وضوحاً.

رنت إليه بطرف عينها فشاهدته يرتشف القهوة وهذا أمر عظيم لأنه إن دلّ على شيء فعلى اقتراب مغادرته المكان... ولكنه لم يظهر أي دليل على الاستعجال... هناك شيء فيه يحيرها... هذا المظهر النظيف في المطعم بعد مظهره العاري حتى الوسط في الشاحنة... وذوقه الباهظ الثمن... وعجرفته؟ إنه لغز، لغز لم تفكر قط في حلّه. مسحت فمها بمنديل ورقي ودفعت كرسيها لتقف.

وما أن وصلت إلى الباب حتى أحست بيد تربت كتفها، فاستدارت ذعرة لترى سائق الشاحنة يقدم إليها ورقة. لقد سمعت صوتاً يناديها، ولكنها كانت تريد الهرب بأسرع ما يمكن من هاتين العينين الساخرتين اللتين لم تتركاها منذ أخذ صاحبهما يرتشف القهوة ببطء.

ازداد وجهها امتقاعاً وازدادت هي ارتباكاً وغضباً من نفسها. تمتمت:

ـ شكراً لك.

وانتزعت الورقة منه، وهي تريد أن تقول له، هذه غلطتك لأنك كنت ترمقني بكل جرأة. لكنها ارتدت عائدة إلى داخل المطعم لتدفع الحساب على الصندوق حيث كانت العاملة مستغرقة في عملها فلم تلاحظ شيئاً. وجدت بروك نفسها تحاول شرح الأمر فقط للرجل الذي وقف وراءها منتظراً دفع فاتورته:

ـ لقد... نسيت. أنا... أنا لم أرتكب غلطة مثل هذه من قبل.

ورفع الرجل المبتسم حاجبيه وهز رأسه وكأنما يقول: لقد سمعت مثل هذه الأعذار من قبل! استدارت عنه غاضبة لتخرج إلى الهواء الطلق. ومن هناك شاهدته يتناول ما بقي له من مال ثم يتجه نحو محلات البيع.

ها هي مرة أخرى تُفتح أمامها الطريق الرئيسية. تغلغل في نفسها إحساس غريب بالحرية... مم؟ لا تعلم... لكنها مسرورة لأنها لن ترى ذاك الرجل ثانية. وداست على دواسة السرعة، وانطلقت السيارة بكل قوتها إلى مقاطعة اونتاريو، حيث بلدها.

بعد عدة أميال، لاحظت صوتاً غريباً يخرج من السيارة... وبما أنه لم يكن مستمراً، حاولت تجاهله.

السيارة عمرها ست سنوات، وهي تحتاج إلى تبديلها بأخرى حديثة الطراز، لكن أنّى لها ذلك والمال غير متوفر، بعد أن تقدّمت في المسير لم تستطع دون أن تنظر من فترة لأخرى إلى الخلف بحثاً عن أثر لشاحنة حمراء. لكنها عادت فوبخت نفسها... فلماذا تنزعج إن لم ترَ ذلك المخلوق ثانية؟ ألم يتبيّن لها بوضوح نظرته إلى المرأة وكأنه لا يريد منها إلا شيئاً واحداً. لن تحتاج إلى ذكاء فائق لتعرف ما هو هذا الشيء.

فجأة اهتزت السيارة بقوة ملأتها رعباً. شيء رهيب يحدث، استطاع عقلها تلقائياً التفكير في الاستدارة بالسيارة تجاه كتف الطريق.

وأوقفتها بحدة، وجلست محنية الرأس، تقاوم الذعر، يداها ما زالتا على المقود تمسكانه. أشعة الشمس اخترقت كيانها فلا نسيم الآن تسببه حركة السيارة يلطف من حرارتها الشديدة، التي بدأت تحرق خدها وذراعها المعرضة خارج النافذة.

خرجت من السيارة لتفتح غطاء المحرك، حينما وقفت تحدق فيه دون جدوى حوّلت بصرها إلى السيّارات والباصات الصغيرة والعربات التجارية

المارّة بها بسرعة. وعندما أبطأت سيارة، لتتوقف قرب سيارتها خفق قلبها بالأمل.

وسألها الرجل:

ـ ثمة مشكلة؟ اوه يا عزيزتي... أعرف تماماً ما هو شعورك، ولكن للأسف لا فائدة ترجى مني أو منك لتصليح محركات السيارات.

نظر إليها ثانية، مبدياً إعجابه بجاذبيتها التي زادها قوة قميصها الذي دون كمين والبنطلون المغبر... أحست بالانزعاج... الرجال! ماذا يظن بي الآن؟ أيحسبني أتظاهر بأن سيارتي معطلة كي أحصل على... ذلك النوع من التسلية الذي يمر في ذهنه الآن؟

ـ هل بإمكاني أخذك إلى مكان لتتناول شراباً ثم نعود؟

أجل... هذه هي فكرته...

هزت رأسها بجفاء:

ـ شكراً لتوقفك.

راقبته يبتعد وهي تحس بالراحة.

ومن بعيد وفوق كل السيارات القادمة، كانت ترتفع سيارة شحن حمراء نارية... أجل... ها هي قادمة... وحش الطريق يقوده السائق المتعجرف ذو الابتسامة الساخرة، خفق قلبها بقوة بينما عيناها مستقرتان على العربة الحمراء البراقة القادمة وكأنما تأملان أن تنجدها.

ماذا لو لم تفعل؟ ماذا لو لم يشاهدها السائق، في حال كان ينظر إلى الناحية الأخرى؟ تحت تلك البسمة الساحرة، تظهر ثقة واضحة بالنفس تجعل المرء قادراً على الاعتماد على هذا النوع من الناس. ومعظم الذين يقودون الشاحنات المحمّلة بالبضائع الخطرة والمهمة من طرف البلاد إلى الطرف الآخر، يُعتمد عليهم نظراً للتبعات التي تلقى على كاهلهم بنقل ذاك الحشد من البضاعة.

ودنت الشاحنة منها أكثر فأكثر... فهل سيكمل مسيره أم يتوقف؟ هل

تتخيل... أم أنه فعلاً يخفف من سرعته. وبكل براعة ناور بالشاحنة العملاقة، لينحرف إلى الخط البطيء من الطريق، حيث أوقفها... تنفست بروك الصعداء ما إن سمعت مكابحه، وتوقف محرك السيارة. كان أول شيء لاحظته بعد أن قفز إلى الخلف لينزل من شاحنته هو الجينز القديم الذي ارتداه بدل ذاك السروال الأنيق أما النصف العلوي من جسده المحروق بفعل أشعة الشمس فكان عارياً.

تقدّم نحوها وهو يلقي نظرة سريعة على كل ما أعجب به السائق الذي توقف قبله، ولكن في نظرة هذا الرجل لمسة إهانة متغطرسة. أهي نابعة من جرأة نظرته أم من التواء شفتيه الساخرتين أم من الطريقة التي يعلق بها ابهميه في حزامه؟ ومهما يكن السبب فقد أحست بروك بقشعريرة خوف تسري في جسدها.

ـ ها قد التقينا ثانية يا سيدتي.

أجفلها صوته الأجش الذي يبدو ضخماً كالأمكنة الواسعة الفارغة، في صوته نبرة تومىء إلى ثقافة وذكاء وهي أدركت ذلك لأنه قبل أن يصاب والدها بتلك النكبة كان استاذاً جامعياً... أردف:

ـ هل واجهت السيدة المتفوقة الصغيرة التي تشمخ أنفها إلى السماء والتي تسير بعجرفة أنستها دفع فاتورة المطعم، أي نوع من الكوارث؟

حدقت إليه بتوتر... لو أنه ليس سوى سائق وضيع لعرفت السبيل إلى التعامل مع صفاقته... ولكن ما من شيء في هذا الرجل يشير إلى مكانة وضيعة.

فردت عليه بالطريقة المتعالية نفسها:

ـ أنا لست متفوقة، بل فتاة عادية أنفها حيث يجب أن يكون أي في مقدمة وجهها تماماً، وهي لم تعتد السير بعجرفة دون أن تدفع الحساب. ولكنّ الكارثة التي واجهتها كانت أنت... وها أنك من بين كل السائقين تأتي إلى نجدتها.

هزت رأسها باتجاه الطريق... محرجة فتمتع هو بما رأى كما فعل تماماً ساعة شتمته عندما تركها ليتجاوزها.

كتف ذراعيه ثم أكمل تحديقه إليها... لماذا لا يسألها ما هي المشكلة؟
قالت له: «لقد تعطلت» فقطب حاجبيه وأجاب:
ـ صحيح؟ ولكنك تبدين لي سليمة، إذا لم أقل نبيلة...
فاحمرّ وجهها، وأجابت:
ـ يا لسعة معرفتك باللغة وأنت سائق شاحنة؟
فابتسم، ولم يزد على تعليقها فأشارت برأسها إلى الوحش المشرف من فوق على سيارتها وتابعت:
ـ هل أتيت بهذه من مكان بعيد؟
ـ من هليفكس.
ـ هل كنت توصل حملاً؟
ـ حمل كيماويات للتصدير.
ـ وهل أنت سائق شاحنة منذ زمن؟
بسمته كانت ساخرة وكأنه يعرف أنها إنما تنقب عن معلومات عنه. أجاب:
ـ منذ أن تخرجت من قيادة سيارات الألعاب نحو حائط الحديقة. لقد خلقت والمقود في يدي وها قد تكسرت أسناني من مفاتيح البراغي واتخمت من حمية اقتصرت على «الصمولة» و «البراغي».

وأخرجت بروك تنهيدة مرتفعة... فهذا الحوار لن يوصل إلى نتيجة:
ـ والدي سيقلق عليّ إذا تأخرت، أرجوك هل لك أن تساعدني؟
لم يغير وقفته، بل قست نظرته أكثر فأكثر، وبقي يحملق فيها بصمت، وكأنما جاء دوره ليزنها ويضعها في مكانها الصحيح من المجتمع تماماً... ستكتشف لاحقاً إن كان تقييمه لها محقاً أم غير محق.
وقالت له:

ـ كتاب تعليمات السيارة على المقعد الخلفي... وستجد... هل لك أن تأتي...

فتحت باب سيارتها الخلفي ودخلت ثم تراجعت لتفتح له مجالاً للجلوس، فتقدم ببطء وأحنى رأسه ليصعد ويجلس قربها، بتوتر أخذت تتصفح الكتاب، وأخذت الرسوم تتراقص أمام عينيها... فقربه منها... وعريان الجزء العلوي من جسده كان أقوى من طاقتها.

وتساءلت متى سيسألها عما حدث قبل أن تتوقف السيارة... نظرت إليه، فإذا به ينظر إليها نظرة خلعت قلبها... في عينيه تلك النظرة التي كانت في عيني ذلك الرجل الآخر، ولكن ذلك الرجل تابع طريقه، أما هذا فتوقف. فإذا كان ما يدور في خلده ذات الأمر الذي دار في خلد من سبقه... فليرحل إلى...

وارتفعت عيناها الزرقاوان إليه، وقد ارتسم على وجهها البيضاوي الجميل شبح ابتسامة...
ـ أرجوك سيد... أنا لا أعرف اسمك.
ـ بإمكانك مناداتي اندي.
ـ اندي... هل لك أن تنظر إلى سيارتي؟ إنها...
ـ صحيح... انظري يا سيدة... سيارتك على ما يرام... متى نبدأ؟ ألا تظنين المكان هنا عاماً؟... ولكن...

ارتفعت يدها قبل أن تستطيع متعها محدثة صوتاً كأنه دوي الرعد رغم ارتفاع أصوات السيارات المارة على الطريق.
ومد يده ليمسك بمعصمها:
ـ أيتها...

ظنت لوهلة أن يده ستكسر رسغها الطري. فاندفعت الدموع إلى عينيها، ولكنها عضت على شفتها العليا لتمنع نفسها من البكاء أو الصراخ... برقت عيناه وهو يقول:

ـ كنت قضيت الساعات والأميال على الطريق العام، تلعبين لعبة القط والفأر معي، تبتعدين... تقتربين... تسبقيني ثم أسبقك. ثم تلحقين بي إلى فندق صغير، أعرفه منذ مدة، وغايتك كل غايتك أن نتعارف بشكل حميم... ثم تعمدين أخيراً إلى أقدم لعبة معروفة وهي التظاهر بتعطيل سيارتك، أما أنا فأستجيب لك في كل ما قمت به منذ ساعات وها أنت أخيراً تدّعين العفة والطهر...

وشحب وجهها، وخفق قلبها، ثم قالت وهي تتلفظ بكل كلمة على حدة:

ـ اخرج... من... سيارتي!

نظر إليها نظرة ازدراء أخيرة... ثم خرج ملبياً طلبها. لكنه ما إن صفق باب السيارة نحو شاحته حتى أدركت أنه بعد لحظات سيختفي، إلى أن يغدو فقط بقعة حمراء بعيدة، بينما ستبقى هي مربوطة هنا مع سيارة معطلة.

عاد محرك الشاحنة إلى الحياة، فنزلت من سيارتها بسرعة وركضت نحوه، وكانت النافذة مفتوحة، فرفعت رأسها وصرخت وهي تلوح بيدها نحو السيارة:

ـ أرجوك... أرجوك يا انذي... أنا لا أكذب انها معطّلة فعلاً... انها لا تتحرك... لا شيء فيها يعمل...

أشرف عليها من علوه بنظراته التي لم تستطع قراءتها أو فهمها، ولكن المحرك ما زال يهدر... وهذا يعني انه زال غاضباً من صفعتها له على وجهه، وانه يرفض مد يد العون لها. استدارت بعجز إلى السيارات المارّة بسرعة وهي لا تلوي على شيء.

●●●

٢ ـ أجدك آسرة

توقف هدير محرك الشاحنة... لكن بروك لم تجرؤ على النظر إلى الوراء خشية أن يكون ما تسمعه من صرير الباب ووقع الأقدام المقبلة وهما من نسج خيالها:

ـ حسناً (جاءها الصوت من الخلف) سألقي نظرة لأرى ما إذا كانت معطلة وإن كانت كما تدعين فسأعتذر.

ونظرت إليه بامتنان، نظرة مشرقة قد تجعل أي رجل يشتعل. لكن هذا الرجل بقي وكأنه شمعة منطفئة، فأحنى الرأس فوق المحرك، باحثة يده هنا وهناك، بشكل أوحى إلى بروك بالثقة المفعمة فالغريزة أعلمتها من خلال الطريقة التي فحص فيها اجزاء المحرك أمامه، أنه يملك القدرة الأكيدة على تصليح المحرك.

بدت مقتنعة بقدرته إلى أن صدمتها كلماته:

ـ أظن أن المحرك بحاجة لإصلاح رئيسي. أخبريني ما حدث بالضبط.

أنصت إليها وهي تشرح، ثم هز رأسه، وأخرج قطعة قماش من جيبه، ومسح يديه:

ـ أظن أن تروس التعشيق (مسننات ناقل السرعة) قد تعطلت، فلم تعد سرعة المحرك تنتقل إلى باقي اجزاء السيارة. ولا استطيع تأكيد شكوكي لكنني على ثقة من صحة اعتقادي.

www.elromancia.com

جلس في مقعد القيادة، وبعد عدة محاولات أدار المحرك. لكن محوّل السرعة لم يتحرك، فرغم محاولاته كلها لم تتحرك السيارة من مكانها. سحب مفاتيح السيارة ووضعها في جيبه:

ـ آسف... لن تحتاجي إليها فترة من الزمن.

ـ وماذا ستفعل بها؟

ـ لا بدَّ من حل. أتوافقين؟

فهزت رأسها، على الأقل لن يتركها هنا عالقة مع سيارتها. وأكمل:

ـ ثمة حل واحد في الوقت الحالي وهو أن تتركيها حيث هي. اخرجي كل ما لك فيها من أشياء وأقفليها. اثناء الطريق سنجد هاتفاً نتصل عبره بالكاراج ليرسل من يسحب السيارة.

ـ اثناء الطريق؟! إلى أين سأذهب؟

ـ سترافقينني في الشاحنة.

ـ أتعني أنك ستقلني بشاحنتك؟

ـ هذا ما أقصده... فما الخطأ فيه؟ هل هذا يسيء إلى كرامتك؟

ـ بالطبع لا... ولكن...

ـ ألا تثقين بي؟

ومسح الخد الذي صفعته وأردف:

ـ ألم أعتذر؟

ـ ولماذا الاعتذار؟ أنا التي صفعتك.

فهز رأسه:

ـ لقد قلت إنني سأعتذر، إذا وجدت السيارة معطلة فعلاً... والآن جاء دورك.

فقالت على مضض:

ـ آسفة على الصفعة، لكنك... كنت تستحقها.

وانخفض جفناه:

ـ صحيح؟ السائقات السّاحرات اللاتي يلاعبنني لهن الحق في كل ما

يفعلنه... هيا بنا لقد أضعنا ما يكفي من وقت. يجب أن أعود إلى نقطة انطلاقي.

لم يتطلب منها إحضار الحقيبة والأغراض الأخرى إلاّ دقائق معدودة، أخذها منها المدعو اندي ليضعها في شاحنته، وسألته:

ـ وهل سيغرّمك رب عملك إذا تأخرت؟

فابتسم:

ـ سيرميني إلى الخارج فوراً.

وتطلعت إلى مقصورة السائق، وتراجعت فقال:

ـ خائفة؟

ـ إنها فخمة.

ـ هيا، سأدفعك إلى فوق.

فتح الباب، فشاهدت للمرة الأولى بروك اسم الشركة التي يعمل فيها الرجل... «لوكربي» فصاحت:

ـ لوكربي...! أتعمل في شركة لوكربي؟

ـ ماذا فعل آل لوكربي بك؟

وانفتح الباب الآن على مصراعيه، ولكنها ترددت:

ـ لا أظنني أرغب في الصعود إلى إحدى شاحناتهم.

ـ بحق الله... ما اسمك؟

أخبرته ما هو اسمها فتابع:

ـ بروك... ألم امضِ وقتاً كافياً أحاول حل مشاكلك؟

وارتفعت قدمها إلى الدرجة الأولى، وأحست بيديه القويتين تقبضان على خصرها النحيل. لن تستطيع أبداً تفسير المشاعر التي اعترتها من لمسة ذلك الرجل لها. كل ما عرفته في تلك اللحظة انها لم ترغب في انتهاء هذه اللمسة. لكنه اعتقد أن ترددها ربما يعود إلى عدم قدرتها على إيصال قدمها الأخرى إلى الدرجة العليا، فمد ذراعه إلى فوق ليسند ذراعها.

www.elromancia.com

وعندما وجدت نفسها أخيراً تجلس في مقعد السيارة وجسدها مستريح على التنجيد الجديد تحتها وخلف ظهرها، تنهدت فلم يكن مخيفاً كما ظنت... لكن الشيء الوحيد المخيف حقاً هو هذا السائق الذي يتسلق للوصول إلى المقود.

وقال لها وعيناه مشغولتان بمراقبة العدادات أمامه:

ـ إنك خفيفة الوزن... لِمَ لم أجد خاتماً في يدك؟

ردت دون أن يكون في صوتها أثر من هم.

ـ فسخت خطوبتي منذ يومين.

ـ دون أقل ندم؟

ـ إطلاقاً...

أحست أمام استغرابها انها فعلاً تعني ما تقول... وأشارت إلى ما خلفها وقد أدارت عينيها في كل شيء حولها:

ـ ما هذا؟

ـ انه سرير. وخزانة. ومكان لتغيير الملابس. وهذا أحدث ما وُجد في عالم الشاحنات هذه السنة. هل عرفت هذا من لوحة التسجيل؟

ـ لم ألاحظ.

ـ أما أنا فمن هذا الارتفاع ألاحظ أشياء كثيرة... فمن لوحة تسجيل سيارتك مثلاً، عرفت أن عمرها ست سنوات، وعرفت كذلك أنك تسكنين في منطقة تورنتو... وإن يكن الاحتمال الأخير غير دقيق، لأنك ربما اشتريت السيارة من تلك المنطقة.

ـ أنت محق، أعيش ووالدي قرب تورنتو.

ـ صحيح؟... اذن قد نلتقي في مرة قادمة.

ـ أتعيش هناك؟

ـ أنت تعرفين أن شركة لوكربي ليست بعيدة عنكم... على فكرة، لقد سألتك من قبل، بم أذاك آل لوكربي؟

ـ لم يؤذوني إنما أذوا والدي. لقد سببوا له شللاً لمدى الحياة. وهو الآن لا يقدر على التجول إلا في كرسي متحرك.

ونظر اندي إلى المرآة، وتحول، بالسيارة إلى الخط السريع من الطريق. وقال:

ـ آسف... هل كان هذا منذ زمن؟

ـ منذ سنة ونصف تقريباً... لقد بعنا منزلنا في اوتاوا، وهو منزل قديم يحتاج إلى التصليح، وها أنا عائدة من ذاك المكان بعد أن وقعّت العقد نيابة عن والدي.

ـ اذن كنت عائدة من اوتاوا إلى تورنتو عندما تعطلت السيارة؟ ومن يعتني بوالدك الآن؟

ـ الجيران، السيد والسيدة هاملتون.

تأملت ما حولها ابتداء من الدعائم فالمقود الضخم، والذراعان واليدان اللتان تتحكمان به وصولاً إلى جانب وجه هذا الرجل الجذاب. وكأنه أحسّ بنظراتها إليه فقد التفت بسرعة لتلتقي عيناه بعينيها. اعتلت وجهها حمرة الخجل فضحك وقال:

ـ أنا في الثلاثين من عمري، أعزب. مليء صحة وعافية، أملك الكثير من المال لا أصرفه إلا على نفسي... فهل أنا صفقة خاسرة؟... أحذرك، بالنسبة للنساء، ليس لدي إرادة. وأنا أعني الإرادة. فإذا رغبت في القبول بي بهذه الشروط يا بروك، فأنا لك.

فردت متلعثمة:

ـ شكراً لك... لا. أفلتُّ لتوي من مصيدة ولا أنوي الوقوع في أخرى، على الأقل ليس قبل وقت طويل. خاصة مع رجل لا يمكنني الاعتماد على إخلاصه لي، أضف إلى ذلك أنني لا أريد إقامة أي نوع من العلاقات التي قد تفكر فيها.

فضحك... وسألته:

ـ هل أنت سعيد في عملك؟

ـ أجن به. خاصة عندما تكون هناك فتاة جميلة إلى جانبي تشاركني سعادتي بالعمل. على فكرة ما اسمك كاملاً؟

ـ بروك ستون.

ـ ستون.

ـ صحيح... هل أعجبتها لك. فربما خلف مظهرك المتحذلق هذا جهل.

ـ يا لشدة ملاحظاتك؟ لقد تركت المدرسة جاهلاً أكثر مما كنت عليه قبل أن ألتحق بها.

فابتسمت:

ـ أنت تكذب بالطبع... فمن الواضح أنك على ثقافة عالية.

قال لها ونظره لا يفارق الطريق الممتد أمامه:

ـ وهل أنا على ثقافة عالية كما تسمينها؟

ـ أنا لست من طبقتك الفكرية... فما أنا إلا سكرتيرة، كانت تعمل سابقاً في مصرف. أمّا الآن فإنني سكرتيرة والدي ومدبرة منزله وسائقة سيارته... ومن أنت؟

ـ من أنا؟ وماذا تظنيني؟ متخلف. أليس هذا واضحاً؟ لقد استوعبت كل ما قدّمته الجامعة لي لأثقف عقلي، لكن بدل أن أضع قدمي على أول درجة في سلم التجارة والصناعة تحولت لأصبح سائق شاحنة.

ـ أنت تمزح دون شك.

ـ وهل أمزح؟

لاحظت بروك تغيراً في سرعة الشاحنة فسألته:

ـ ماذا يحدث؟

ـ ثمة محطة خدمات أخرى أمامنا فيها هاتف عام، سأتصل منه بالمرآب لأطلب سحب سيارتك. لا تقولي انك نسيتها؟

اصطبغ وجهها بحمرة الخجل وهي تكره الاعتراف بانها قد نسيت فعلاً أمر سيارتها.

ابتسم لها وهو يوقف الشاحنة:

ـ هل تجديني جذاباً إلى درجة أنستك كل شيء آخر.

فصاحت بقوة:

ـ لا!

كادت أن تقول «نعم»... فضحك، وتركها رده تشهق:

ـ هذا أمر مؤسف، لأنني أجدك آسرة.

وانحنى إلى الأمام ليفتح خزانة صغيرة تحت رف القيادة، لا تبعد كثيراً عن ركبتها اليسرى، وأخرج منها قميصاً. وبينما كان يهم في ارتدائه أدار وجهه ليطبع على غير توقع منها قبلة حارّة على خدها. ثم استوى جالساً ليقول أمام نظرة الذهول التي كانت ترمقه بها:

ـ أنت حلوة المذاق كما توقعت تماماً، أعتقد أن خطيبك مجنون إذ كيف يتخلى عن هذه السعادة التي توفرينها لرجل.

ـ أتعلم ما أنت يا سيد...

ـ أخبريني...

ارتدى قميصاً تركه دون أن يزرره، على طرف جيبه الأعلى طُبع باللون الأحمر كلمة لوكربي. وتابع كلامه:

ـ لا... سأوفر عليك الازعاج، فأنا وقح، صفيق، متهور،... وسيء اعلمي أنني مع الوقت، ودون أن يشجعني أحد، أنوي أن أكون أكثر وقاحة وصفاقة وتهوراً... إذ لماذا تحسبيني تبعتك هذه الأميال كلها؟ السبب رغبتي في معرفة ما إذا كانت هذه السائقة الأنيقة الماهرة التي رأيتها من الخلف جميلة الهيئة كما خُيّل لي وللإجابة عن السّؤال الذي لا شك في أنك تريدين طرحه. لقد وجدتك رائعة.

فتح الباب ليقفز إلى الأسفل، ثم راح يبتعد فنادته عبر النافذة:

ـ أرجوك سيد... اندي... أحب أن... أحب أن...

فعاد إليها ببطء:

ـ أما قلت انك أنيقة رقيقة؟

فتح لها الباب فاتبعت تعليماته لتنزل الدرجات وصولاً إلى ما بين ذراعيه. كل ما شهدته منه سابقاً كان يدفعها لأن تنزع نفسها منه، ولأن تصد كل محاولاته. لكن مشاعرها الخائنة، ربحت النضال، فإذا بها تسند جسدها إليه وإذ به يضحك ضحكة خافتة تدل على سروره الشديد باستسلامها له بهذه السهولة. راح غضبها يتفاعل في ذاتها لأنها شعرت به يظنها سهلة المنال.

في تلك اللحظة بالذات تركها، ليحرك يديه نحو خصرها ويديرها لتواجهه. فطالع وجهه الباسم نظرة غاضبة منها وتعبيراً يوحي بالرفض وكأنها أرادت أن تصرخ مدافعة: أنا لست سهلة المنال كما تظن... لكن شيئاً ما فيك...

حررت نفسها منه بنزق:

ـ قبل أي شيء أريد أن أتصل بوالدي... سيبدأ بعد قليل بالقلق.

فهز رأسه أمّا هي فشقّت طريقها إلى غرفة السيدات، ولم تلتفت إليه سوى عند الباب لتجده يحدق فيها، قبل أن يتجه نحو غرفة الهاتف.

وخاب أملها عندما وجدت أنها بحاجة إلى نقود معدنية في غرفة السيدات لاستخدام الحمام. وفتشت دون طائل في حقيبتها، ولما يئست من إيجاد شيء رأت أن ليس أمامها إلا أمر واحد هو العودة إلى اندي لتطلب منه ما تحتاجه.

ووجدته في غرفة الهاتف يتكىء إلى جانبه، كان يتكلم بقوة وبطريقة متسلطة غريبة، وبما أنها لم تعد تستطيع الانتظار حتى يكمل مكالمته، فتحت عليه باب غرفة الهاتف وسمعته يقول:

ـ اسمع يا طوم... اريد انهاء هذا الأمر كله. اسحبوا السيارة إلى الكاراج، وليصلحها أفضل ميكانيكي لديك... وأريد تفحص كل الأخطاء،

فيها قبل أن...

أصغى قليلاً ثم أردف:

ـ نعم... أعرف بالضبط من هي... إنها ليست ثرية، بل هي بعيدة كل البعد عنه ولكن الأسباب لا استطيع شرحها لك الآن، أريدك معالجة هذا الأمر بشكل طارىء ومستعجل. أفهمت؟ لماذا؟ لأنني...

ربما أحس بأن أحداً يستمع إليه فالتفت بسرعة وسألها:

ـ ما بك؟

فأجفلت وقالت وهي تمد حقيبة مالها:

ـ ليس لدي... نقود معدنية.

وبدا أن حرجها ردَّ إليه روح المرح، فضحك وفتش في جيوبه:

ـ هاك... هل يكفي هذا؟

فابتسمت شاكرة، وركضت نحو الحمامات. في الوقت الذي عادت فيه إلى غرفة الهاتف وجدته ينتظر. قال لها:

ـ لقد حجزت هذا لك. هل لديك المال المطلوب هذه المرة؟

هزت رأسها شاكرة وبدأت تطلب الرقم بينما أسند هو نفسه إلى الباب المفتوح. وتمنت لو ينصرف بلباقة ويبتعد، لكن رغم نظراتها الواضحة المعنى التي رمقته بها، تجاهل تلميحها. لذا لم تجد أمامها خيار سوى التحدث إلى السيدة هاملتون أمامه، طالبة من المرأة شرح الوضع لوالدها:

ـ قولي له أن لا يقلق... أرجوك. فربما أتأخر أكثر مما يتوقع.

سألتها السيدة هاملتون:

ـ أتودين التحدث إليه يا عزيزتي؟

ـ لا تزعجيه... بل أخبريه فقط.

أقفلت الخط ثم قالت للرجل الذي ما زال يستند إلى الباب:

ـ لقد انتهيت فهل وجدت حديثي مسلياً؟

قهقه من جديد ثم سار إلى جانبها نحو الشاحنة حيث بدا اسم «لوكربي»

www.elromancia.com

الذي لم تستطع تجاهله مدهوناً على المقدمة فقالت:

ـ لوكربي.

أخرجت تلك الكلمة مشبعة بالكره بقدر ما أوتيت من قوة، فسألها:

ـ ألا تحبيننا؟

ـ ألا يجب أن تقول «ألا تحبينهم» بما أنك موظف عندهم؟

ـ اوه... لكنني عملت لديهم منذ سنين عدة حتى بتُّ أشعر بي وكأنني أحدهم، ثمة شيء واحد قاموا به أعجبني كثيراً هو وقوفهم في وجه المنظمات الكبيرة، ورجال العصابات وحفاظهم على مؤسسة عائلية، وأتمنى أن نبقى هكذا في المستقبل المنظور.

ـ أنت فعلاً تهتم قلبياً بمصالحهم.

ـ بإمكانك قول هذا باستمرار.

فتح لها الباب، وساعدها على الصعود إلى المقعد... وسرعان ما تحركت الشاحنة بهما... وبعد برهة قال:

ـ في إحدى هذه الخزائن الصغيرة سندويشات وقهوة. وبعد مسافة قصيرة سنصل إلى موقف عام أعتقد أن من الأفضل لنا التوقف فيه لنتشارك هذا الطعام.

ـ الطعام والشراب لك... أما أنا فلست بجائعة.

أظهر من جديد براعته في إيقاف هذا الوحش المتحرك داخل فسحة صغيرة.

ـ لست جائعة؟ وهل تكفيك قطعة خبز محمصة وزبدة وقطعة «كايك» وفنجان قهوة، في وقت كان عليك فيه تناول طعاماً مغذياً أكثر. أنت الآن دون شك تتضورين جوعاً.

ردت بصراحة:

ـ لم استطع شراء ما هو أغلى ثمناً. فبعد سنة ونصف من اضطراري للعيش على إيراد والدي الضئيل، وعلى ما يحصل عليه من دفعات صغيرة

من التأمين الاجتماعي، لم يبق لي شيء أصرفه على وجبات دسمة.

انحنى ليفتح الخزانة القريبة منها فاصطدم كتفه بكتفها لحظة ابتعدت عنه قدر المستطاع، خشية أن يحيي ضغطه عليها مشاعرها لكنها لم تنجح في مسعاها إلى إبعاد نفسها عنه. الأنها لم تعطه مساحة كافية أم لأنه لا يريد أن تبتعد عنه. فهل يقوم بذلك عمداً؟

عندما انتهى من إحضار علبة بلاستيكية وترموس القهوة، والفنجانين التفت إليها وترك عيناه تستقران عليها أولاً ثم تتجولان ببطء على كل مظهرها الجذاب قال:

ـ أعذريني آنسة ستون، ولكن ملامستي لك، تغلغلت في أعماقي واخترقت عظامي. وكأنها سحر جارف.

واستوى في جلسته ليناولها الصندوق البلاستيكي:

ـ تفضلي... تناولي ما تشائين، كلي كل شيء، لأنني فقدت شهيتي هناك في المطعم.

وتناولت بروك سندويشاً، وأعجبتها رائحته فقضمت فيه عميقاً. وتبع القضمة الأولى قضمة ثانية وثالثة وكلها جرت بسرعة لأنها اعتقدت انه لن يتنبه لها وهو مشغول في صب القهوة. لكنه قال معلقاً على الأمر:

ـ أقلت انك لست جائعة؟ أنت كما ظننت، تتضورين جوعاً.

ومدت العلبة:

ـ أنا آسفة جداً... أرجوك أن تأخذ واحداً بل أكثر... انها لك حقاً.

وأبعدها عنه:

ـ لقد قلت لك... أكلت. وليس من عادتي تناول شيء بعد الوجبة الرئيسية.

وأعطاها كوب قهوة، فهزت رأسها شاكرة. قال بعد أن ارتشف عدة رشفات من قهوته:

ـ ما الذي جعل والدك على ما هو عليه في الوقت الحالي؟

- أتعني كيف انتهى به الأمر إلى كرسي متحرك؟ لقد قلت لك... أحد سائقي لوكربي...

- أعلم هذا، ولكن ماذا حدث؟

- كان أبي استاذاً جامعياً.

أرجع رأسه إلى الوراء ليرتشف آخر القطرات في فنجانه.

- في أي موضوع؟

- علوم اللغات الحية. لقد أصيب بالشلل في عطلة الشتاء فقد خرج وقتذاك لشراء هدايا الميلاد. وبينما كان يفكر في ما سيشتريه من أغراض خطا دون أن ينتبه خطوة إلى الشارع، وقد اعترف والدي أنه قد شاهد شاحنة حمراء تقترب منه وكان بإمكانه الهرب إلا أنه على ما يبدو اساء الحكم على تحركاته وقدرته على الهرب بسرعة.

وانتظرت للحظات لترى ردة فعله وعندما لم تظهر عليه أية بادرة تابعت:

- وأنكرت شركة لوكربي مسؤولياتها عن الحادثة خاصة بعد أن اعترف والدي بخطئه... بعد ذلك أحالوا القضية إلى شركة التأمين... أنا دهشة إذ كيف لم تسمع بالأمر وأنت أحد موظفيهم؟

فرد بهدوء:

- غالباً ما يكون سائقو الشاحنات غائبين، وبعيدين عن البلد.

- إذن ربما حدث هذا أثناء سفرك.

- أتريدين قهوة بعد؟

فهزت رأسها بالقبول، ولفت يديها حول دفء الكوب وكأنما الطقس قد أخذ من الموسم الذي أصيب فيه والدها برودته. وتابعت:

- لم نحصل على شيء، لا تعويض، ولا ترضية من المؤسسة على خسارة والدي عمله أو على اضطراري إلى ترك عملي لرعايته.

وكان يوضب علبة الطعام الفارغة ووعاء القهوة والفنجانين مكانهما.

- ألم يكن بإمكانه متابعة عمله... وهو على كرسي متحرك؟.

فهزت بروك رأسها:

- في عمل والدي جانب ميداني لا بد منه كالذهاب إلى المكتبات وزيارة المتاحف والمشاركة في فحص المخطوطات القديمة، دون ذكر السفر إلى الخارج... ولذلك استقال من وظيفته وقررنا الانتقال إلى ضواحي تورنتو، وهو مكان إن كان قد شُلَّ فيه والدي، أحبه دائماً لقربه من أماكن سياحية، وخاصة شلالات نياغارا...

تنهدت ثم راحت تنظر إلى الحقول المترامية أمامها دون أن تراها، وتابعت:

- إنه الآن يؤلف كتاباً عن رحلاته السابقة حول العالم... وأنا أساعده وثمة ناشر ينتظر الكتاب لحسن الحظ، لكن والدي دقيق في عمله إلى حد جعله يقضي وقتاً طويلاً لانهائه.

انحنى اندي ليعيد كل شيء إلى الخزانة الصغيرة دون أن يحاول في هذه المرة لمسها وكأنه كان مشغولاً بأشياء أخرى. ونظر إلى خلفه ثم إلى جانبيه، ويد فوق يد ثم ذراع فوق ذراع ناور بالسيارة الضخمة ليخرج بها إلى الطريق ثانية. فعلقت بروك:

- أنت تقود وكأنك تفعل هذا منذ سنوات طويلة.

- لقد قلت لك انني أقود منذ أن سمح لي القانون بقيادة السيارات... هل قلت لك انني رتبت أمر سحب سيارتك وتصليحها؟

- شكراً لك... هل سيكلفني تصليحها كثيراً؟

- من يدري؟ سيعطوننا تقديراً.

- احتاج السيارة من أجل والدي الذي قد يجن إن لم يخرج من المنزل، وبما أنني لا استطيع شراء سيارة أخرى فسأضطر إلى تدبير المبلغ المتوجب علي من أي مكان.

تابع رفيقها القيادة بثبات، دون تعليق... وتساءلت بعجب، لما تتسارع

www.elromancia.com

نبضات قلبها عند رؤيته أو عند التفكير فيه حتى؟ لم تقابله إلا منذ ساعتين. ومع ذلك فقد أثر فيها بطريقة لن تنساها أبداً. وليس ذلك فحسب بل هي الآن بدأت تثق به. قالت وهي ترفع صوتها فوق صوت المحرّك:

ـ كنت لطيفاً جداً معي يا اندي. وساعدتني كثيراً ولا أدري كيف السبيل إلى شكرك.

ـ هل أتوقف في مكان آخر لأظهر لك كيف السبيل إلى شكري؟ الأمر بسيط!

غيّر سرعة السيارة ليتسلق مرتفعاً وأكمل وهو يضع اصبعه على فمه «يلتقي هذا» ثم وبيده الأخرى وجد ثغرها «بهذا» وأكمل:

ـ أم أنك ضنينة جداً بقبلاتك ولذلك فسخ الخطيب الخطبة.

فقالت بغضب:

ـ أنا التي فسختها.

ـ أتريدين معرفة سبب لطفي؟ منذ زمن دُعي سائقو الشاحنات القديمو الطراز، بفرسان الطرقات إذ كانوا يمدون يد المساعدة لكل من يقع في مشكلة... وأنا أحد اولئك.

ـ اوه...

لا ريب في أنه قد لاحظ الفتور في ضحكتها لأنه بعد أن ضحك امتنع عن الكلام ليتركها تواجه وحدها غرورها الأرعن وكبرياؤها الجريح. لقد ترقبّت ثناءً ومديحاً لها من قِبَل هذا الرجل الجالس قربها وهو ثناء سيكون له قيمة في ذاتها. هذه الفكرة أطلقت في نفسها سلسلة من الإثارة... لكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ سيرحل هو إلى غير عودة وهذا يعني أنها لن تراه ثانية. ألمها ذلك دون أن تفهم فلاذت بالصّمت أميالاً عدة.

وعندما تكلم أخيراً سألها:

ـ كم غبت عن المنزل.

ـ أسبوعاً.

ـ بقيت أسبوعاً كاملاً من أجل فسخ خطوبة؟

ـ لم يستغرقني ذلك سوى بضعة أيام. أتعلم أن الخطبة شيء لا أشجع عليه... هل كنت يوماً...

ـ لا... لم أكن أبداً.

ـ بعد أن فسخت الخطوبة وبعد أن وقعت أوراق البيع زرت اصدقائي لأودعهم.

ـ لا يظهر أنك قد استمتعت بهذا الأسبوع. هل عشت طويلاً في ذلك المنزل؟

ـ لقد ولدت هناك، وعاش والداي فيه خمساً وعشرين سنة ففيه توفّى الله والدتي منذ ست سنوات، وكان لي من العمر ثمانية عشر عاماً.

تأملت التلال التي بدأت تظهر على جانبي الطريق وتنهدت:

ـ ما أروع العودة!

ـ إذن أنت تحبين منطقتنا هذه؟

ـ كثيراً... أحببتها منذ أن كنت أمضي فيها إجازات التخييم على ضفاف بحيرة اونتاريو. يومها قرر والدي انه خير مكان له عند تقاعده، منذ ثلاث سنوات اشترى منزلاً صيفياً، ليستخدمه في العطل الصيفية لكن الريح جرت عكس ما تشتهيه السفن وبتنا نعيش فيه طوال العام.

ـ يوم الحادثة، كنتما تقضيان عطلة الميلاد هنا؟

ـ كنا نأتي متى استطعنا، بغض النظر عن الفصل أو الطقس.

وسألها أين تسكن فأجابته... فقال:

ـ هذا لا يبعد سوى أميال عن مركز شركة لوكربي... وهذا يعني أن أنزلك أمام منزلك بالضبط.

هدر محرك السيارة بين منازل القرية الصغيرة على ضفاف نهر الهمير، تمنت في هذه اللحظة لو تطلب منه عدم الوقوف أمام منزلها، فهي لا تعلم ما ستكون ردة فعل والدها إذا ما رآها تصل بشاحنة تخص الشركة التي أقعدته إلى الأبد في كرسي نقّال.

www.elromancia.com

وتساءلت عما إذا كان قد قرأ أفكارها، فعندما قالت:

ـ أرجوك أنزلني هنا.

أجابها وعضلات فكه تشتد:

ـ سأوصلك إلى باب المنزل.

لم تفهم سبب الاستماتة في دفاعه عن أرباب عمله، أشارت بيدها إلى منزل ريفي حجري سطحه قرميدي مثلث:

ـ هناك... يبدو متداعياً من الخارج ولكنه في الداخل نظيف مرتب. وليس...

أوقف الشاحنة وقاطعها بابتسامة:

ـ أنا لا أقطن في قصر، لذلك توقفي عن التلعثم والاعتذار.

شيء ما في لهجته، وتلك الغطرسة واللهجة الآمرة التي سمعتها عندما تحدّث هاتفياً، جعلها تحمّر بسرعة. توقفت عن الاعتذار:

ـ لا داع إلى التكبر يا هذا! فليس والدي من يلام إن لم يكن قادراً على شراء منزل أفضل.

بدت عليه الدهشة لهجومها:

ـ ومن يتكبر أو يعاملك باستعلاء؟

وعندما فكرت في سؤاله جيداً عرفت أنه محق.

ـ آسفة.

وجمعت حاجياتها، وحاولت فتح الباب. أما هو فنزل الدرجات ثم التف حول الشاحنة فوصل إلى جانبها قبل أن تنزل. أخذ منها الحقيبة والمعطف، ووضعهما على الأرض، ثم ارتفعت يداه لتمسكا خصرها ولتحملاها من الدرجة العليا حتى الأرض ثم أدارها لتواجهه، فرفعت وجهها إليه بابتسامة مضطربة... ظنته ينتظر شكرها لكن كل ما قالته:

ـ شكراً.

قال ويداه على خصرها:

ـ لقد تمتعت بصحبتك.

ـ هل صحبتي أفضل من الاستماع إلى الاهداءات ورسائل الحب والموسيقى من الراديو؟

ـ إنها أفضل بكثير بكثير لا مقارنة بين ذلك وبين جلوس فتاة جميلة حقاً قربي. فتاة شقراء ذات عينين زرقاوين ضاحكتين، وأنف بارز عريض، وشفتين مغريتين!

فأخفضت عينيها إلى صدره، وأحست بتوق لضغط أصابعها على قساوة عضلاته، لتصل إلى ما وراء مظهر الرجل القاسي الظاهر أمامها. وقال لها:

ـ هل نترجم الشكر إلى فعل؟

حدقت فيه:

ـ أتعني... أن أعطيك...

عيناه القادرتان على الانقلاب في لحظات من البرودة المتحفظة إلى البهجة الحقيقية، كانتا تضحكان لها:

ـ أنا لن أسرقها. فليس لديك خطيب يلكمني لأنني سرقت ما له.

وقبل أن تحتج ضمها إليه... وكانت شفتاه على خدها رغم برودتهما، ثابتتين تنمان عن مشاعر عميقة كالمحيط تعتمل في نفس الرجل ذي المظهر الهادىء. ولم تدم قبلته طويلاً، لكنها بقيت ما يكفي لتجعل يدها ترتفع بسرعة إلى خدها وكأن النار لسعته. تركها قائلاً:

ـ ما بك؟ هل أنت خائفة من أن يرى أحدهم سائقاً يقبلك؟ هل هذا سيخفض من مركزك الاجتماعي أمام الجيران؟

سخريته المتها:

ـ أنا لست متكبرة! ولكن إذا شاهدني والدي، فبم تظنه سيشعر خاصة عندما يرى شاحنة تابعة لشركة لوكربي التي كانت سبب شقائه تقف أمام منزله؟

تسلق الدرجات إلى مقصورة القيادة، وأدار المحرك... وصاح:

www.elromancia.com

ـ سأدعك تعرفين أخبار سيارتك!
وانطلق في طريقه.

● ● ●

٣ ـ عيناه تأسرانها

استخدمت بروك مفاتيحها لتدخل المنزل الذي بُني في القرن الثامن عشر والذي لم يُغيَّر فيه إلا القليل. فمنذ اشتراه والدها، قبل الحادثة المشؤومة، عندما كان إيراده جيداً، استخدم بعض البنائين لصيانته ضد تقلبات الطقس.

النوافذ استبدلت بأخرى حديثة، لا تفسد مظهر بنائه الحجري وأما الباب الرئيسي فأصبح الآن من الزجاج بدل الخشب الثقيل. كانت الردهة الصغيرة تقود إلى غرفة الجلوس التي تحتوي على سجاد يمتد من الحائط إلى الحائط إضافة إلى مقاعد مريحة مغطاة بقماش زهري ثقيل وطاولة خشبية متينة ومصقولة.

استقبلها والدها ببسمة ترحيب دافئة. كانت نظارته على عينيه، وشعره ولحيته الرماديتان ممشطين ومرتبين. بدا وكأن لا شيء يعتريه. وكأنه سيهب عن هذا الكرسي متى شاء ليجتاز هذه الغرفة ولعل ما كان يحطم قلب ابنته هو علمها بأنه عاجز عن فعل ذلك دون عكازين.

انتظر والدها إلى أن غرقت في مقعد قريب منه:
ـ تبدين مشرقة جداً يا عزيزتي... هل أكملت سيارتك صنيعها ومعروفها فنقلتك تلك الأميال وصولاً إلى هنا.

أيبدو عليها الإشراق حقاً كما يقول؟ فإذا كان هذا صحيحاً، فلماذا يا

www.romancia.com

ترى؟ الجواب واضح، وإن رفضت الاعتراف به... لن تقابل سائق الشاحنة بعد الآن. لقد وعدها بمعرفة أخبار سيارتها على الأرجح عبر الميكانيكي.
هزت رأسها لتجيب عن سؤال والدها:
ـ لا... لقد تركتها وحيدة على كتف الطريق. وما كنت أدري ماذا أفعل لولا أن سائقاً توقف لنجدتي.
ـ سائق سيارة؟ لا بد أن وجهك الجميل ونظرتك العاجزة هي التي أوقفته.
أخذت تعبث بأغطية المقعد التي صنعتها والدتها منذ سنوات بعيدة صناعة يدوية، وقالت بحذر:
ـ لم يكن سائق سيارة يا أبي... بل سائق شاحنة... ألقى نظره على المحرك ولكنه لم يستطع إصلاحه لذا جاء بي إلى هنا.
ـ كم هو لطيف هذا السائق. لكن أليس المكان بعيداً عن طريقه؟

فهزت رأسها وتابعت الكلام وهي تأمل في إبعاد اهتمام أبيها عن الموضوع.
ـ اتصل بالمرآب ورتب أمر سحب السيارة لإصلاحها. ولقد وعدوا بفحصها كما وعدني بأن يذكر لي التكاليف.
وضحك والدها مرحاً:
ـ إنه فارس من الطراز الحديث يعتلي مقصورة آلة لها أربعة دواليب لا صهوة جواد ذا أربعة قوائم.
ـ أربعة دواليب؟ كان عليك أن تشاهد الوحش الذي كان يقوده! أربعة عشر دولاباً! و... لقد قال إنّ سائقي الشاحنات كانوا معروفين باسم فرسان الطرقات، لأنهم يساعدون الناس... خاصة الفتيات الجميلات.

سرقت نظرة إلى وجه أبيها المبتسم... انه في حالة طيبة مكنته من تلقي الخبر بسهولة، وأكملت:
ـ كان يقود شاحنة لـ «لوكربي».

فقد وجه ستانلي ستون مرحه.
ـ وهل قبلت أن توصلك مركبة للوكربي؟ بعدما فعلوه بي؟
ـ لم يكن أمامي خيار آخر. فلولاها لبقيت ربما إلى الآن في عرض الطريق حيث كان الناس يمرون بي دون أن يأبهوا لوجودي. أما الرجل الذي ساعدني فهو موظف عندهم. لا اعتقد أن له يداً في ما أصابك، فقد يكون المسؤول عن حادثتك زميلاً له وهو إلى ذلك أوصلني سالمة إلى البيت.
لم تغادر تقطيبة الاتهام وجه أبيها. فتابعت:
ـ لقد خدمني كثيراً يا أبي إذ قام بكل الإجراءات لتصليح السيارة وقدّم لي طعاماً عندما عرف أنني لم أتناول ما يكفي للغداء.
بدأت كلماتها تسكّن غضب الوالد. فقال:
ـ علي أن أعترف أنه يبدو متفهماً. لذا أخالني معجباً بسائقي الشاحنات، ولا أحسدهم على عملهم في نقل الأحمال الثقيلة الخطرة من مكان إلى مكان عبر البلاد.

أراحها ردّ والدها دون أن تعرف سبب هذه الراحة. أهو ميلها إلى الدّفاع عن هذا السائق بالتحديد أم ماذا؟ وقالت وهي تحاول تغيير مسار الموضوع:
ـ لست أدري إذا كنت قد لاحظت... ولكن... لقد فسخت خطبتي.
ظهر الاهتمام الفوري على الوالد:
ـ بروك... عزيزتي... أرجو ألاّ أكون أنا السبب؟
أكدت له العكس ثم تابعت:
ـ كنتُ أنا المخطئة. أحسست بأن هناك خطأ ما عندما لم أشعر بالشوق إليه، فقد خلتني سأفكر فيه ليلاً نهاراً لكن العكس حدث.
ـ هل ظهر عليه التكدر؟
ـ في البداية نعم. لكنه عاد فتمالك نفسه. واتفقنا على البقاء صديقين.

سُمع على الباب طرقة مألوفة دخلت بعدها الجارة التي رحبّت ببروك بحرارة وقد استمعت تلك الجارة إلى بروك باهتمام عندما أخبرتها عمّا

حدث معها وقد رأت السيدة هاملتون أن الشاب الذي أزعج نفسه من أجلها لا يجب أن يلام على حادثة والدها. أما ستانلي ستون فقد أقنع نفسه بعض الشيء بوجهة نظرهما. سألتها السيدة هاملتون:

- هل سيطول وقت تصليح السيارة يا عزيزتي؟ لقد كان زوجي بارعاً في إصلاح السيارات لكنه الآن غدا طاعناً في السن ولم يعد يليق به النوم على الأرض ووجهه إلى قعر السيارة بينما نصف جسده ملقى تحت السيارة!

ضحك الجميع، وقال الاستاذ ستون متنهداً:

- نحن مضطرون لإصلاح هذه السيارة التي قد تصرف كل مدّخراتنا لكننا نحتاجها بشدة ولن نستطيع شراء أخرى.

ومر اليوم التالي دون أن تسمع كلمة عن السيارة أو عن اندي وعندما حل اليوم الثالث لم تعد تطيق صبراً، فقالت لوالدها:

- سأتصل بشركة لوكربي. وسأرى إذا كنت استطيع أن أتكلم مع ان... الرجل نفسه.

- مستحيل يا بروك... فقد يكون على بُعد مئات الأميال فربما هو على شواطىء الأطلسي أو الهادىء أو ربما في أواسط أميركا!

وافقت بصمت، لكن مشاعرها كانت محبطة بشأن الرجل المسمى اندي... الذي ربما نسي وجودها، ووجود سيارتها، بل ربما نسي وعده بالاتصال بها. كم أصابتها تلك الفكرة بخيبة الأمل حتى باتت لا تصبر يوماً دون أن تعرف الخبر اليقين عن الأمر.

كانت تحفظ رقم المقر الرئيسي لشركة لوكربي عن ظهر قلب وذلك منذ أن تعاملت معهم وقت الحادثة ولكنها بسبب عدم معرفة السبيل إلى الاتصال به فقد قررت الاتصال بالمكتب الرئيسي أولاً. وعندما أجيب عن مكالمتها بكلمات:

- لوكربي:... هل استطيع مساعدتك؟

ابتلعت بروك حرجها وقالت:

- هل يمكن... أن اتكلم مع أحد سائقيكم رجاء؟ اسمه اندي...

ردت الفتاة من المكتب:

- آسفة... هل لك أن تكرري ما قلته؟

- لقد قلت ان اسمه اندي... واتساءل ما إذا كان...

تغير صوت ولهجة الفتاة:

- اعذريني سيدتي... هل قلت إن اسمه اندي؟ آسفة... ولكن يجب أن اسألك... هل أنت إحدى صديقات السيد... صديقة له؟

ردت بروك بجفاء:

- لا... لست كذلك. أريد فقط معرفة ما جرى بشأن...

- لا حاجة للشرح سيدتي... سأرى إذا كان موجوداً.

غاص قلبها وهي تغوص في المقعد... هل خدعها الرجل «بسحره» و«قبلته» و«ترتيباته» لتصليح السيارة، وهل هذا آخر عهدها بسيارتها الثمينة؟

الصوت الوقور في الهاتف معها أجفلها:

- من المتكلم؟

هذه المرة، كانت السلطة تتكلم، ولا مجال للمزاح، أو للسخرية. من أين أتته هذه السلطة وما الذي يعطيه الحق في أن يتكلم بهذا الأسلوب؟

تنحنحت:

- أنا... أنا بروك... بروك ستون.

مرت لحظات دون أن يردّ عندئذ شعرت وكأنه رجل يختلف عن ذاك الذي تعرفه.

- آه... الفتاة التي كانت في ورطة والتي أنقذتها من بين فكي وحوش الطريق. أتصور أنك تحاولين السؤال عن حالة سيارتك؟

ارتبكت للتغير في الشخصية خلال ثوانٍ فأجابت وكأنها طفلة:

- أجل... أرجوك.

بدا وكأنه يبتسم:

www.elromancia.com

- حسناً، لقد أُعلِمت بتكاليف إصلاح السيارة.
- قلت إنك ستتصل بي.
- صحيح... ولكن ثمة أسباب عديدة منها أن السيارة ستكلفك ثروة صغيرة.
فصاحت:
- ولكن يا اندي... ليس لدي هذا القدر من المال...! لقد قلت لك...
- لم أنس!... هل أنت حرّة هذا المساء؟
- أنا حرة كل مساء... عندما يستغني عني والدي.
- إذن تعالي إلى محطة تصليح لوكربي حوالي السابعة مساء لتتكلم بهذا الشأن.
- وهل هناك ما يجب أن نتكلم به؟ من الأفضل أن أبيعها بالقدر الذي استطيع الحصول عليه «للكسر».
- قلت لك تعالي هذا المساء... هل آتي لأقلك؟
- وهل سيكون هذا في شاحنة؟
- ماذا تفضلين المرسيدس؟
تنهدت:
- ومن لا يفضلها... لا أريدك أن تأتي يا اندي لأن والدي قد اغتاظ عندما حدثته عن إيصالك إياي بعربة تابعة للوكربي. وقد أقنعته بعد جهد في النهاية بأن لا شأن لك في ما حصل، ورغم اقتناعه النسبي لا أحسبه سيرحب برؤية شاحنة لهم أمام منزله تهمّ ابنته في ركوبها.

طال الرد... تساءلت:
- أما زلتَ معي؟
- ما زلت معك... في هذه الحالة، ستضطرين للمجيء إلى الكاراج وحدك؟ أراك عند السابعة إذن.
أقفل الخط قبل أن تشكره حتى.

عندما سارت بروك عبر باحة محطة لوكربي، كانت مترددة. رأت الغرفة الزجاجية التي يصطف أمامها أصحاب السيارات من أجل دفع فواتيرها، وعندما جاء دورها نظرت إليها الفتاة في الداخل، فقالت بروك:
- أرجو المعذرة، ولكن أيمكنك اخباري عن مكان وجود رجل... أعني سائق لدى لوكربي يدعى اندي؟
- اندي.
نظرت إليها الفتاة باهتمام وتابعت:
- هل اسمك بروك؟
- نعم... كيف حزرت؟

نظرت إليها الفتاة باستغراب وقالت مشيرة بيدها:
- اذهبي من هنا إلى الخلف، ثم سيري إلى الأمام مباشرة ولن تخطئي مركز التصليح.
شكرتها بروك وسارت بالاتجاه الذي دلتها عليه، كانت الأمسية دافئة، لكن النسيم البارد القادم من التلال أنذرها بدنو غروب الشمس. وعند نهاية محطة الخدمات رأت مقهى خلفه مساحة كبيرة تمتد إلى حيث تقف شاحنات في صفوف منتظمة مدموغة كلها بأحرف بارزة باسم لوكربي كما رأت. وهنا وهناك سيارات صغيرة تنتظر أصحابها.

كان إلى يسارها فسحة مغطاة بسقف من التنك وجدت فيه سيارتها التي يبرز من تحتها ساقان طويلتان، تقدمت منها لتتنحنح:
- أرجو المعذرة!

انطوت الساقان الطويلتان عند الركبة، وبعد لحظات وقف الرجل المدعو اندي أمامها، لم تتوقع أن تسر إلى هذه الحد لرؤيته.
- آنسة ستون... من الخير لنا تجديد معرفتنا الصغيرة.
تعلقت عيناها في كل قسمات وجهه بحثاً عن السخرية... أجل... ها هي تطل من عينيه كما من صوته. مدت يدها آلياً لتضعها في يده، فهزها

بقوة ثم تركها وهو يضحك... نظرت إلى يدها، ثم صاحت:

- اوه... انظر الآن...

أظهرت له يدها ملطخة بالشحم، وتابعت:

- لقد فعلت هذا متعمداً!

- نعم لتتسنى لي السعادة في تنظيفها.

وأحضر خرقة بللها من زجاجة فيها سائل قوي الرائحة ثم شرع في إزالة الشحم الأسود عن يدها. وعيناه تأسران عينيها وابتسامته تشير إلى أفكار جعلت قلبها يضرب متألماً.

وعندما انتهى شكرته، ثم أخذت تفتش عن مغسلة، فقال:

- سأريك فيما بعد أين تغسلين يدك.

أخذ يمسح يديه بالخرقة المبللة ثم مدَّ اصبعه إلى خصلة من شعرها فتراجعت بسرعة وهي تقول:

- ليس ويداك مليئتان بالشحم!

- وهل يعني هذا أن علي الانتظار إلى أن أنظف يداي؟

- لم أقصد ذلك!

ارتدَّ رأسه ضاحكاً فنظرت إلى سيارتها:

- من الرائع أن أراها ثانية! لماذا كنت تحتها؟

- كنت أضع اللمسات الأخيرة على التصليح.

- اللمسات الأخيرة؟ لكن اندي... لقد قلت لك انني لن استطيع دفع الكثير. كيف مضيت قدماً بالتصليح وأنت تعرف...

مد يديه الملطختين أمامه:

- قلت إنني كنت أضع اللمسات الأخيرة على التصليح.

- ومن قام بالتصليح؟... أنت؟

- لا تدهشي... أما ذكرتُ لك أنني ولدت ومفتاح براغي فضي في يدي، أو في فمي؟... أنا أصلح العربات، السيارات، الدارجات وشاحنات المؤسسة عندما يكون لدي الوقت. ثمة ميكانيكون طبعاً، لكنني أساعدهم

في الحالات الطارئة. إنها هوايتي.

- ولكن ألست سائقاً؟

- ماذا يفعل بحسب رأيك السائق عندما تتعطل شاحنته على بعد أميال حيث لا عامل يصلح الخطأ. هل تظنينه قادراً على هجر مركبته، التي كلفت المؤسسة الآلاف من الأموال، دون ذكر الحمولة الثمينة التي هي ملك لشركة أخرى؟

- هذا يعني أن على السائق القيام بالتصليح بنفسه.

- وإذا لم يستطع عليه الوصول إلى أقرب هاتف، أما إذا كان يجتاز الصحراء فعليه اعتلاء ظهر أول جمل يراه وصولاً إلى هاتف.

ضحكت بروك فتأملت عيناه عينيها الزرقاوين ووجهها المصطبغ باحمرار جميل. قالت:

- اذن أصلحت سيارتي؟ هذا لطف كبير منك.

فهز رأسه ورفع حاجبيه:

- صحيح؟

- الآن... أرجو منك أن تبعث الفاتورة لي... لا إلى والدي. كما أرجو... أعني أنني امل...

- تأملين أن لا تكون مرتفعة سعراً.

- لا... كنت أريد القول أنني امل أن لا تمانع لو تأخرت قليلاً بالدفع وإن كنت في حاجة إلى المال فقد أجد وسيلة ما لتأمين المبلغ لك... و...

فابتسم:

- لعلك سترحبين الآن بالاغتسال وبفنجان من الشاي؟

فتنفست الصعداء وهزت رأسها بالموافقة. فمد يديه إلى رأسها وهزه إلى الوراء وإلى الأمام.

- دائماً تهزين رأسك... ودائماً تقولين «نعم».

فضحكت:

- لا... وأرجوك أبعد يديك الملوثتين بالشحم عن شعري؟

فانحنى فوق رأسها:

- يبدو نظيفاً و... رائحته زكية. هل يقدر مطلق رجل على مقاومة اغراء وضع أول قدم على ثلج لم يمس بعد؟ أو على أرض عذراء لم تمس؟

- لكنني لست...

وصمتت... فسارع يقول متصنعاً الدهشة:

- أوَ لست... آه، لقد نسيت أنك كنت مخطوبة.

- هل اضطررت إلى شراء قطع جديدة لإصلاح السيارة؟

تغيير الموضوع فجأة، أبهجها:

- وجدت كل ما أردته في مخازننا.

- وهذا يعني أنك دفعت ثمنها وأنني مدينة لك.

- لا تنسي الحسم الخاص بالموظفين.

- لا أمانع إن لم تحسب لي الحسم... سأكون شاكرة لك كل ما قمت به من أجلي.

لمعت عيناه وهو يرد:

- سأرسل إليك الفاتورة.

- أرجوك أرسلها. متى ستنتهي سيارتي.

- غداً... سأوصلها إليك بنفسي.

- أفضل أن آخذها بنفسي... شكراً.

بينما كانت تهمّ بالابتعاد شامخة الرأس أتاها صوته ناعماً خفيضاً:

- انزلي من عليائك قليلاً يا آنسة ستون!

تذكرت كل ما قام به لها... فقالت وقد تغيرت تصرفاتها:

- متى ستأتي؟

ابتسامته، أخفاها عند استدارته نحو باب بدا يقود إلى غرفة صغيرة، وقال:

- في المساء، عند الثامنة؟

تبعته موافقة فرأت في زاوية الغرفة المليئة بالفوضى مغسلة، فسألته وهي تنظر إلى يديها:

- هل لي أن أغسل يديّ هنا؟

فابتسم وأخذ يشير إلى ما تحتويه الغرفة:

- مغسلة، منشفة وسخة، صنبور ماء لا ماء ساخن فيه إذن لا... إنها ليست المكان المناسب لتغسل سيدة يديها فيه.

خلع ثوب العمل وعلقه على مشجب فارغ. فبان عندئذ قميصه مفتوح عند العنق وجينزه ملطخاً ببقع الزيت.

ابتسم لها وهو يمسك يدها:

- هل حللت شخصيتي جيداً، تعالي معي يا فتاتي.

ابتسمت له، فأمسكت يده المتسخة بالشحم يدها المتسخة أيضاً ثم سار بها عبر باحة تقف فيها الشاحنات إلى مقهى يقبع خلف محلات البيع، عندما وصلا مدّ يده إلى جيبه فأخرج منه كومة من المفاتيح اختار منها مفتاحاً فتح به الباب الرئيسي. عندئذ نظرت إليه دهشة:

- هل تقدّم شركة لوكربي إلى كل سائقي شاحناتها مجموعة مفاتيح كاملة؟

- لا هذا يصعب جدوته، ولكن بما أنني مضطر إلى البقاء في أماكن متعددة في الشركة فقد أُذن لي بحمل مفاتيح عدّة.

لم يشفِ جوابه رغبتها في معرفة الحقيقة لكنه لم يهتم بذلك بل جرّها وراءه إلى المطبخ الواقع في آخر المقهى ومنه إلى غرفة صغيرة ذات بابين فتحهما بمفاتيحه.

- اغتسلي هنا... كما تشير اللوحة، وأنا أغتسل هنا...

عندما خرجت من الغرفة، نظيفة، منتعشة، مسرّحة الشعر، كان الإبريق يغلي على النار وكان هو يضع فنجانين. بدا أنيقاً مسرح الشعر، قد استبدل الجينز الوسخ بسروال بني رائع، وقميص العمل بقميص آخر نظيف.

وضع اندي الشاي في الوعاء، ثم صب الماء المغلي فوقه... أرخى جنبه إلى الطاولة فازدادت تعجباً من تصرفاته المستبدة فنظر إليها ساخراً، وقال:

- ابحثي جيداً... تصلي في النهاية آنسة ستون.

- أصل إلى أين؟

ولم يردّ بالكلمات بل بابتسامة. أحرجتها وجعلتها تشيح نظرها عن نظرته الممعنة المحملقة فيها. فسألها:

- هل أنت متأثرة؟

- بالنظافة، المعدات الحديثة؟ نعم كثيراً.

- عظيم... فهدفنا إرضاء القوانين كلها والوصول إلى الأفضل.

- نحن؟

- أنت شديدة الملاحظة... أعني لوكربي بالطبع. حتى وإن كنت لا أعدو أن أكون سائقاً إلا أنني أملك ما يفتقده الناس في هذه الأيام وهو الولاء.

كان تفسيراً لم تجد سبيلاً إلى عدم القبول به. قالت:

- الشاي... هل أصبه؟

سمح لها بإشارة من يده بالقيام بالمهمة. فصبت له فنجاناً لم تضع فيه سكراً بناءً على طلبه ثم قدمته إليه. بعد أن استلم الفنجان منها دعاها للجلوس إلى إحدى الطاولات.

ساد صمت مطبق دقائق معدودة حاولت خلالها إشاحة نظرها بعيداً عنه لأنها شعرت به يرمقها بنظرات ممعنة. وصب لنفسه بعض الشاي، أما هي فرفضت المزيد منه. وسألته:

- اندي، هل يعيش أهلك في هذه المنطقة؟

- نعم.

كان رده قاطعاً وكأنه يحذرها بأن لا تتمادى. فغيرت الأسلوب:

- لقد قلت لي إنك غير متزوج... ولست أفهم... فهل أنت مطلّق؟

- لا لم يحدث قط ان ارتبطت بامرأة.

- آه... هذ يعني أن هناك نساء... ولكن...

كان يمكن أن يكون الصوت الخفيض تنهيدة معاناة أو سخطاً:

- ألا تطئين أرضاً خطرة؟ فماذا يفترض بي أن أفهم من اسئلتك؟

توترت وانزعجت من نفسها لأنها تسبر أغوار حياته بقدر ما انزعجت من تحذيره الفظ. وتابع:

- ربما كنت تتساءلين عن مدى نشاطي... استطيع اثبات هذا لك.

وأقفل المسافة بينهما، وأحست بضغط جسده الخفيف عليها. بقيت لحظات جامدة في مكانها مع العلم أنه أفسح لها مجالاً للهرب لكنها وقعت في الفخ، فخ مشاعرها فخ قربه منها هذا القرب الذي كشف لها أدق التفاصيل في وجهه، آه لو تجرؤ على رفع يدها لتلامس هذا الوجه أو لتشعر بخشونة بشرته!

ومع أنه بقي حيث هو، ويداه على خصره، فقد أحسّت به وكأنه يغلفها بذراعيه، وبذاتها تنجذب إليه دون أن يتحرك... فهمست:

- اندي...

عبثت أصابعها بقماش قميصه، فمدّ يده ليفرد أصابعه على ظهرها... كان في عينيها الباحثتين عن عينيه سؤال أجاب عنه بيسر:

- بروك؟ سبق أن قلت لك إنني أجدك أسرة.

أخذت تدفعه عنها بلطف:

- لكن هذا لا يعطيك المفتاح لتصل إليّ.

- ألا يعطنيه؟ حسناً، إن لم استطع بشفتان الوصول فما رأيك بهذا؟

وضمها إليه، ورفع يده إلى رأسها يشده إلى صدره، ليرسل رعشات من القشعريرة في جسدها. وأخذ يضغط باليد الأخرى على خصرها لتلتصق به أكثر. فتسارعت أنفاسها وهي تقول:

- لا... لا... لا!

أخذت راحتاها تدفعانه عبثاً. قال:

- اذن، هكذا يجب أن يكون ما بيننا.

في البداية قاومت، محاولة جهدها التهرب منه، ولكن عندما اشتد عناقه، وجدت مشاعرها وأحاسيسها قد بدأت تخونها فكان أن استسلمت راضية بمتطلبات ذراعيه ويديه. وتصاعد في داخلها شعور بأن ما يجري كله خطأ، وأن مثل هذا الأمر الحميم يجب أن لا يجري بينهما... فلا شيء بينهما حقيقي، ولا صداقة أو مشاعر. فمعرفتها به قصيرة الأمد ومعرفته بها أقصر بكثير. فليس بينهما إلا انجذاب من طرفه و... نعم... عليها أن تعترف... ومن طرفها كذلك.

وبينما كانت تفكر شعرت بأنها تطير فوق السحاب، دائخة، إلحاح مشاعرها يتعالى ويزداد مهدداً بتدمير دفاعاتها كلها، لتبقى مكشوفة أمامه وتحت رحمة ذراعيه.

عندما شعرت بجسدها يضطرم تحت يديه اللتين تمسدانها بملمسهما وجدت أن عليها المقاومة وأجبرت نفسها على الاسترخاء التام دون أن تتجاوب معه ولما أحس بها فوراً تجمد بين ذراعيه تركها وهو يقول متوتراً:

- كما ظننتك تماماً... رغم من خطوبتك... ما زلت أرضاً محظورة.

فقالت غاضبة:

- إذا كنت تحاول إغرائي لقول «نعم» أو «لا» فلن تنجح... فليس لك الحق في أن تفعل ما فعلته!

فابتسم بكسل:

- ألا حق لي إطلاقاً؟

- على كل... لقد قلت لك... لقد فسخت خطوبتي منذ فترة وجيزة لأتحرّر ولا أريد الوقوع في شرك آخر.

- من يتكلم عن الوقوع في شَرَك.

غضبت من نفسها لإفساحها المجال له في أن يضعها عند حدها:

- إذا كنت تظنني صيداً ثميناً عابراً...

توقف عن الكلام قليلاً ثم أردف:

- إذن رغم تصريحك، فأنت تسعين وراء علاقة دائمة؟ ألم أقل لك... ليس لدي إرادة لمقاومة أمور كهذه؟

أرسلت عيناها الشرر، وتصاعد صدرها وهبط وقد وقعت في شرك الغضب قالت مقطوعة الأنفاس:

- أنت... أنت! إنك لمغرور حقاً فكيف تعتقد ولو للحظة أنني أريدك شريكاً دائماً!

- بعد تجاوبك معي واستمتاعك بعناقي استطيع القول إن غروري قد أرضي كل الارضاء.

- أنت تراوغ وتلتف حول الأمور ثانية... أتذكر عندما اتهمتني بأني كنت ألعب لعبة «القط والفأر» على الطريق العام في وقت ما كنت أسعى فيه إلا للابتعاد عن طريق سائق شاحنة مجنون يتبعني كظلي. أتذكر أيضاً كيف فسّرت وقوفي على الشارع خطأ إذ خلتني أريد مطارحتك الغرام في مقعد سيارتي الخلفي...

فابتسم للذكرى وتابعت بصوت عاصف:

- وكنت في كل مرة مخطئاً. وأنت مخطىء الآن.

وسمعت صوتاً رفيعاً داخل نفسها يقول: أنت كاذبة! أنت منجذبة إليه! هذا الرجل قد سحرك! وأنت تخافين من اللحظة، التي ستحرمين فيها من مشاهدته إلى الأبد...!

تقدم منها بكل عفوية، وأخذ يعيد ترتيب ياقة فستانها، ثم شعرها، قالت بصوت غزاه التوتر:

- أتمنى لو تحضر السيارة إلى منزل والدي غداً لأدفع لك الفاتورة. وشكراً لك على كل ما فعلت.

ارتدت على عقبيها، لتخرج من المقهى، مجتازة الباحة أمام محطة بيع الوقود، وهي تأمل أملاً ضئيلاً بأن يناديها ويعرض عليها أن يوصلها... فهنا وهناك باصات صغيرة تابعة لشركة لوكربي، ولن يضيره أن يستخدم إحداها لإيصالها.

حتى وهي تدخل المنزل. كان الغضب الغريب لا يزال يعتمر في نفسها. وبما أن من الضروري إخفاء انزعاجها عن والدها، كي لا يطلب تفسيراً تعجز عن إخفاء الحقيقة عنه، زجرت نفسها لتتوقف عن هذا السخف وتعود إلى طبيعتها.

طوال اليوم التالي لازمها الترقب والانتظار حتى وهي تتسوق في محلات القرية الصغيرة على ضفاف النهر. وهي تعمل في طباعة ملاحظات أبيها، تهتم بحاجاته، تطبخ طعامه، كان ذلك الشعور يلفها وكأنه «الساري» الشرقي الملون.

وعندما طُرِق الباب كانت تجلس مع والدها في غرفة الجلوس فأسرعت إلى النافذة التي تطل على الشارع فشاهدت سيارتها تقف عند المنعطف وعلى مسافة قصيرة منها تقبع سيارة أخرى، لها ضعف حجم سيارتها وقوتها دون أدنى شك. قال لها والدها:

ـ هلاَّ فتحت الباب يا عزيزتي لتري من هو الزائر.

وفتحت الباب فطالعها رجل طويل نحيل يرتدي ثوب عمل مطبوع عليه بالأحمر اسم «لوكربي»... ولكنه لم يكن الرجل الذي توقعته. فقد كان وجهها يبتسم لاندي... وتنورتها الكحلية المزررة وبلوزتها الزرقاء المفتوحة الياقة كانت لاندي... شعرها مغسول ومصفف خصيصاً كالحرير المتموج لاندي... ومع ذلك فهو لم يأتي!

وقال الرجل:

ـ لقد جئت لك بسيارتك يا آنسة. مع تحيات شركة «لوكربي».

ولم تخرج منها كلمات الشكر... تقطيبتها كانت لخيبة الأمل...

ولكن الرجل ظن هذا من الحيرة فأضاف:

ـ لن تدفعي شيئاً... إنها تسير كالطير الآن.

وأخيراً وجدت صوتها:

ـ شكراً جزيلاً لك. ولكن يجب أن أدفع. لا يمكن أن أسمح...

وتلاشى صوتها، وتملكها عدم التصديق... لقد قال انه سيوصلها بنفسه... واتفقا على الساعة الثامنة... وسألت:

ـ أين الرجل الذي كان يعمل على تصليحها؟ الرجل المدعو اند...

سمعت صوت صفق باب سيارة، ورجل بدأ يسير نحو المنزل بخطوات لينة فوق ممر الحديقة... قال الوافد الجديد:

ـ طوم... حسناً...

وأشار برأسه إلى السيارة الكبيرة المتوقفة خلف سيارتها:

ـ انتظرني... أتسمح؟ سأوصلك بنفسي.

وهز الرجل رأسه، وتوجه ماراً بالوافد باتجاه السيارة.

ـ اندي؟

وكانت همسة. فابتسم:

ـ ومن غيره.

على الأقل... ابتسامته لم تتغير، بالرغم من تغير كل شيء.

ـ الـ... السيارة؟... الرجل... أنت؟

ونظرت إليه صعوداً وهبوطاً وهي تلاحظ بعينين جاحظتين نوعية بذلته وتفصيلها الرائع... وطريقته في حمل نفسه وكأنه الآمر الناهي، ومع ذلك ينام تحت السيارات، ويلوث يديه بالشحم، ويقود شاحنة وكأنها الوحش، وينقذ فتاة من جانب الطريق ويطعمها السندويشات والقهوة...

يتناول الغداء بسهولة ويسر في مطعم جيد ومن طراز مرتفع، ويدير ظهره للمقهى البسيط المخصص لسائق الشاحنات.

ولم تكن تعلم اسم عائلته... ومع ذلك فقد عانقها وقبلها على

خدها... فمن يكون هذا الرجل؟

● ● ●

٤ ـ من أنت؟

أخذت عيناه تطوفان بها طولاً وعرضاً لكنهما توقفتا عند حناياها وعند بياض عنقها وعينيها الواسعتين المتسائلتين ثم عند تموجات شعرها الأشقر.

قال بصوت رخيم ناعم:

ـ يمكنني... أن أشربك من كأس كريستالي بوهيمي قديم... أو أن أملكك على طبقٍ صيني قديم كما أقدر على جعلك وجبة لي في كل يوم... أعطني فقط شيئاً من تشجيع.

فهمست، وهي تخشى أن يسمع والدها الحديث الغريب الحميم:

ـ أرجوك... كفَّ عن هذا الكلام المجنون... أرجوك أخبرني ماذا يجري.

ـ لا شيء أخبرك عنه سوى أن طوم موظف عند لوكربي أيضاً. وكان على شخص ما أن يقود السيارة لأستطيع إرجاعه.

ـ حسن جداً... إنه زميل لك. ولكن... أنت... وتلك...

أشارت إليه، ثم إلى السيارة. فأجاب بنعومة:

ـ ألم أقل لك، تابعي بحثك وستصلين آنسة ستون؟

ناداها والدها من الداخل:

ـ بـروك! ادخلي الشاب إلى هنا؟ فأقلُّ شيء نقدمه له بعد خدماته الجليلة هو تقديم بعض القهوة له.

www.elromancia.com

وتعالي الاحمرار إلى وجهها الشاحب:

- أنا اسفة... ليس من عادتي أن أكون غير مضيافة... تفضل و...

نظرت إلى السيارة:

- وزميلك.

- وددت لو أدخل، شكراً لك، لكن لا وقت عندي. أما بالنسبة لطوم فلا أحسبه يمانع في الانتظار بضع دقائق.

واستدار والدها بمقعده ليصل إلى المدخل:

- تفضل يا اندي، أليس هذا اسمك؟ لم أسمع غيره منذ ثلاثة أيام.

ازداد وجه بروك احمراراً:

- أبي... أنت تعلم أن هذا غير صحيح.

فنظر إليها اندي نظرة ذات مغزى ثم التفت إلى والدها:

- استاذ ستون؟ تسرني معرفتك، خاصة بعد الدعاية الواسعة التي وفرتها لك ابنتك.

بعد أن تصافح الرجلان حرّك ستون مقعده إلى البهو ومنها إلى غرفة الجلوس.

- ماذا تحب أن تتناول يا اندي؟

أصرّ الاستاذ على تقديم شراب له ترحيباً به كضيف، فصبّ له بعض العصير الذي قامت بروك بتقديمه إليه. وقال الاستاذ ستون بعد أن جلس:

- اندي أنا سعيد لأنه تسنى لي أن أشكرك فأنت لم تنقذ ابنتي فقط من موقف صعب، بل أصلحت سيارتها كذلك.

كان في عينيه الحذقتين ذكاء لم تنل منه الحادثة فقد راحت عيناه تحللان الوضع الاجتماعي والفكري لهذا الشاب الذي يميل بمقعده الآن إلى الخلف.

أعلمتها تقطيبته أنه مثلها لم ينجح في مسعاه. وكان يهم بالكلام عندما حال هذا الشاب بينه وبين ما يريد قوله فقد التفت إلى الفتاة الجالسة أمامه

ليهبها إحدى ابتساماته:

- لقد وهبتني السعادة برفقتها وما كانت مساعدتي لها إلا وسيلة لقول «شكراً» لها.

فابتسمت بروك:

- ومن علمك مثل هذه الخطابات يا اندي؟

لم تهزه سخريتها... بل قال لوالدها:

- انها لا تصدقني استاذ ستون. من علمها أن تكون مؤدبة هكذا.

ضحك الاستاذ، لكن بروك قالت بجفاء:

- كم نحن مدينون لك يا اندي؟

فدفع كوبه من يده ووقف:

- لقد قلت لك إنني سأرسل الفاتورة.

ومدت يدها متوترة لتملس شعرها:

- أنا أريد أن أدفع لك الآن.

- وأنا لم أقم بحساباتي بعد... فهل تصدقيني إذا قلت انني نسيت طريقة الجمع؟

تعالى ضحك ستانلي ستون من جديد، ولكن بروك قطبت:

- لا بد من أن يعرف حتى سائق السيارة كيفية الجمع أحياناً إذ كيف يزن الحمولة، والكمية التي توضع في الشاحنة.

ردعتها ضحكته... فقالت غاضبة:

- حسن جداً... كنت تهزأ بي هرباً من ذكر كلفة التصليح؟ ولكنني أصرّ على الدفع.

نظر إلى ساعته ليُحدث التضليل الذي أراده وقال:

- طوم ينتظر... يجب أن ارجعه.

أمسكت بروك بذراعه:

- لن تتهرب مني بهذه الطريقة... كم المبلغ؟

كان رده أن غطى يدها بيده ونظر إلى عينيها مبتسماً، وعلى الفور

أحست بضعف في ساقيها، وبذوبان في جسدها... فابتعدت عنه:

- سألتك كم يا اندي؟

فقاطعهما والدها:

- بروك... ألم تتعلمي قط القبول بهدية وأنت شاكرة؟

- أجل ولكن...

حاولت سحب يدها من يده، لكن اصابعه اشتدت أكثر على يدها.

- عظيم... أشكرك لأنك سمحت لي بالقيام بعمل جيد في حياتي التي لم تكن إلى الآن ملأى بالفضيلة، وستصبح هذه الفضيلة منارة تشع نوراً كوجهك الباسم.

ذعرت بروك فكل ما يحدث يقع أمام والدها:

- توقف عن هذا الهراء يا اندي.

فقال اندي للاستاذ:

إنها المرة الثانية التي لا تصدقني فيها. أهي دائماً متشددة إلى هذا الحد؟

قالت بترفع:

- لست متشددة... هل أنا متشددة يا أبي؟

فقال ستانلي:

- أعتقد أنها تعتبر المديح نوعاً من الغزل.

فتابعت:

- أنا أرتاب بالغزل والمغازلين.

ترك يدها تقع إلى جانبها وكأنه أراد من حركته هذه إهانتها. اتجه اندي صوب الباب. فقال الاستاذ:

- هل لي بكلمة واحدة قبل ذهابك... كيف اتفق أن أصبحت سائق شاحنة يا اندي؟ هل تغيرت اتجاهاتك وأنت على وشك الإمساك بهدفك؟

حاول اندي الرد إلا أن بروك سارعت لتقول:

- قال لي إنه من الناحية العلمية مغفل.

كان على وجهها ابتسامة لكن في عينيها تحدياً. التفت اندي إليها بحدة، وحاول أن يتكلم ولكنه عاد فصمت. سأله ستانلي ستون بجرأة:

- في أية جامعة كنت يا اندي؟

سخرت بروك ثانية بلؤم:

- طبعاً في أفضل جامعة، فسائق الشاحنة يحتاج إلى الأفضل.

نظر إليها اندي نظرة أسكتتها والتفت والدها:

- جامعة «ماكجيل» في مونريال.

هزت بروك رأسها ساخرة:

- ولماذا لم تقل في لندن، في كامبردج أو اكسفورد مثلاً...

كان في نظرته تهديد أجفلها. أما نظرة والدها فاستقرت على وجه اندي مفكراً:

- لعلي شاهدت وجهك هناك، لقد كنت أتردد كثيراً على تلك الجامعة في الأيام الغابرة. ماذا درست؟

- إدارة الأعمال.

التفت إلى بروك:

- هل لك أن ترافقيني إلى الخارج؟

مد يده إلى والدها:

- أتصافح يد هارب من الطبقة الأكاديمية؟

فضحك الاستاذ، والتقت أيديهما لفترة قصيرة. قال الاستاذ ورأسه مرفوع ليلتقي نظرة الشاب:

- بصراحة... لا أصدق ما تقول.

ارتبكت بروك فراحت عيناها تنتقلان من أحدهما إلى الآخر.

عند الباب، توقف اندي.

- كدت تصلين آنسة ستون. فإن لم تكوني سريعة البديهة قد يسبقك

www.elromancia.com

والدك إلى ما تبغين الوصول إليه أنت.

- يسبقني إلى ماذا؟

- أنت تعرفين الرد... أترغبين في توديعي على ما أظن.

- لا... لا... لا أريد...

لكنها أصبحت بين ذراعيه.

أخذ يطالب بجائزته، فطوقت ذراعاها عنقه واستسلمت لعناقه تهبه ما يريد وكأنها تخشى من أن يتركها ويرحل إلى الأبد. عندما تركها راح يتأمل عينيها اللامعتين ووجنتيها المتوردتين وشعرها الذي تشعث... قال بنعومة:

- ليتني أستطيع حملك في شاحتي أيقونة تجلب لي الحظ... ألن تمنحيني قبلة، بعد كل ما فعلته لأجلك؟

هذه المرة أحكم إمساكه فعانقها بجرأة ووقاحة أكثر. أحست بقسوة عناقه تقطع أنفاسها وبضغطه يكاد يقضي عليها. ثم ودون أن تدري وجدته في منتصف الطريق إلى سيارته المنتظرة أمام باب الحديقة لكنه بعد ابتعاده عنها تركها مجردة من كل سلاح، ضائعة، تائهة المشاعر رأته يدنو من طوم الذي خرج مسرعاً من السيارة ليفسح لاندي المجال إلى دخولها ثم اتجه إليها طوم.

- أيمكن يا آنستي أن توصليني بسيارتك إلى الكاراج؟ لقد تأخر السيد اندي على موعد هام، وطلب مني أن أسألك نقلي بسيارتك.

- أهلا بك.

بينما كانت تخرج المفاتيح التفت طوم إلى الرجل المنطلق بالسيارة فأشار إليه ثم رفع يده إلى رأسه محيياً. ولم تكن هذه الإشارات مما يتبادله الزملاء... ولا ريب أن في الأمر شيئاً مختلفاً بين هذين الرجلين.

في البدء كان حديثها وحديث طوم عاماً، لكنه شيئاً فشيئاً تطور فاستعدت لتسأله ذاك السؤال الذي لا يبرح تفكيرها:

- صديقك... ذلك الرجل... سائق الشاحنة الذي أصلح سيارتي...

- سائق شاحنة يا آنسة؟ السيد اندي؟

- من هو... ما اسمه الآخر؟

- لوكربي يا آنسة... اسمه السيد اندي لوكربي... بعد أن أصيب والده بأزمة قلبية تقاعد فاستلم السيد اندي الذي هو أكبر من شقيقه تود مسؤولية الشركة وبناءً على ذلك أصبح هو صاحبها.

بقيت بروك صامتة بعد عودتها من الكاراج لكن والدها الذي كان يشاهد التلفزيون، لم يلاحظ وجهها الشاحب ولا هدوءها إلا بعد أن صرح عن حاجته إلى السرير. قال وهما يشربان الشوكولا الساخن معاً:

- كنت سارحة طوال السهرة... أعلم ذلك لأن إحساسي لا يخطىء وقد اكتسبت القدرة على اكتشاف انزعاج الآخرين منذ أن شرعت في التدريس. أخبريني عما يزعجك.

حدقت بروك بعيداً، ويديها حول كوب الشوكولا، وقالت بهدوء:

- ذلك الرجل... اندي... اسمه اندي لوكربي!

لم يخفِ رد أبيها لهجة الرعب فيه:

- أهو فرد من أفراد العائلة؟

- ليس فرداً من أفراد العائلة فحسب بل هو مدير الشركة العملاقة.

علا صوتها وقد أوشكت على الاجهاش في البكاء:

- كيف يدعي أنه مجرد سائق شاحنة، مجرد موظف... كيف يستطيع؟

عندها فقط أدركت كم غدت مشاعرها متعلقة بذاك الرجل وكم أثّر غزله فيها. أما الآن وبعد أن عرفت هويته فلن تراه ثانية على أساس الصداقة.

قال والدها بمرارة:

- لقد استقبلناه... وقدمنا له الشراب... ومددت له يدي التي صافحها دون شعور بالذنب!

أخذ يرتجف، فسارعت بروك إليه وأحاطته بذراعيها:

- لا تدع الأمر يكدرك... فما الفائدة؟

- لا شيء قد يصلح ما وقعت به من مصاب من قِبل أحد بسائقيهم الرعناء.

أشاحت بنظرها عنه:

- كما لا شيء قد يعيد إلينا المال الذي خسرناه... أو... عملك الجامعي!

- هذا إن لم نذكر الشلل الذي منعني عن الحركة التي أشتاق إليها والتي لا يعرف أحد بما فيهم أنت شدة المعاناة التي أعانيها، يا إلهي إن أولئك المغرورين لم يدفعوا لي قرشاً واحداً تعويضاً عن الخسارة التي منيت بها بل إنهم لم يبعثوا إلي ولو برسالة تعاطف.

فذكرته بهدوء:

- أبي... لقد اعترفت أمام الشهود أنها كانت غلطتك.

- ربما... لم أعد أطيق التفكير في الأمر.

تلك الليلة نامت بروك نوماً متقطعاً فعندما كانت تغفو كانت تطالعها صورة مزعجة هي لرجل عريض المنكبين قويهما، تساعدانه على قيادة شاحنة عملاقة بسهولة، ويحمل مع ذلك عبء عمل مزدهر... رجل رغم قساوته استطاعت يداه أن تلاطفها، أن تغازلها، وأن تثيرها وتحطمها في آن.

كانت بروك تنظف ما بقي على مائدة الطعام صباحاً عندما رن جرس الهاتف وأجابت:

- منزل الاستاذ ستون.

- بروك؟

كان صوته منخفضاً... فأجابت بحدة:

- نعم؟

بعد لحظة صمت سألها:

- كيف حال والدك اليوم؟

- كما كان... وكما سيبقى أبداً.

سمعت أنفاسه، كأنها تكاد تلفح وجهها... ساد الصّمت:

- فهمت... أريد رؤيتك... هل أنت حرة هذا المساء؟

خرج غضبها من عِقاله بقوة:

- لا... سيد لوكربي... ليس في هذا المساء ولا في مساء آخر...

- إذن أخبرك طوم؟

- نعم أخبرني... لما أبقيت هويتك سرّاً؟ سيد لوكربي؟ أكنت خائفاً مني أنا سيد لوكربي؟ أوكنت تحسبني سأتناول سكيناً أطعنك فيه... أم تخشى أن أعضك، أو أخربشك... وأضربك إلى أن...

- هذا يكفي... لقد أوضحت وجهة نظرك تماماً.

بدأت تصيح بجنون هستيري وكأنها ما عادت تطيق أن تترك في ذاتها شيئاً:

- لا... لم انته بعد... أنت... وشركتك وضعتما والدي في كرسي متحرك مدى الحياة... أخذتم منه وسيلة عيشه، حريته في الحركة. حسناً... لقد أنكرتم مسؤوليتكم عبر شركة التأمين. لكنكم لم تدفعوا قرشاً واحداً من قبيل اللطف أو الشفقة التي لا تملكونها، لو كنت أعرف من أنت يوم قدمت إلي المساعدة لكنت... لكنت استدعيت الشرطة.

كان قلبها يخفق خفقات قوية حتى كادت تشعر بالغثيان والوهن فهدأت نفسها وأكملت بهدوء أكثر:

- أتمنى لو أنني لم أرك أو لم أسمح لك بلمسي... أو... أو بعناقي..!

طفرت الدموع من عينيها فأكملت كلماتها بصوت مخنوق قطعه البكاء:

- أكرهك سيد لوكربي... كما لم أكره شخصاً أو شيئاً في حياتي كلها!

كاد صوت إقفال السماعة من الجهة الأخرى يصم اذنيها.

عملت بروك طوال النهار في كتاب أبيها، تفك رموز خطه بصعوبة. وإذا كان العمل الشاق له القدرة على الشفاء، فستتأكد بنفسها بعد أن تغرق

www.elromancia.com

نفسها فيه. وسرعان ما استعادت رباطة جأشها من عذاب العاطفة الذي مرت به مع اندي لوكربي...

العمل... على كل الأحوال، يجب أن يتوقف... خلال الساعات والأمسيات والليالي الحالكة الظلام التي قضتها مستلقية في فراشها... كانت تجد من المستحيل أن تُبقي عواطفها هاجعة.

بعد ثلاثة أيام، وصلتها رسالة من محامي شركة لوكربي، تحوي شيكاً بأربعة أرقام مالية، ارتجفت يد ستانلي ستون وهي تمسكه حتى كاد يقع من بين أصابعه، فوجهه امتقع:

ـ أيخالون مالهم سيعوض عن خسارتي؟ أو يعيد إلي القدرة على الوقوف، والخروج من هذا الكرسي؟ هل سيمكنني من تسلق التلال، والانضمام إلى البعثات التي كنت أحبها كثيراً؟

أعادت بروك قراءة الرسالة:

«هذا الشيك مرسل إليكم باسم موكليّ، السادة لوكربي وأولاده. هية لكم بغية مساعدتكم مالياً... وهم يقدمون إليك بعض التعويض عما خسرته من مال نتيجة الحادثة. ويجب هنا أن أقرر، وأركز، على أنهم بإرسالهم هذا المبلغ، لا يعترف موكليّ بأية مسؤولية عن الحادث... السادة لوكربي».

صاحت وهي ترى أرقام الشيك:

ـ هذا رائع... الآن نستطيع شراء سيارة... مستعملة بالطبع...

فصاح والدها:

ـ يجب أن تعيدي إليهم الشيك حالاً.

قالت بروك وكلها أسف:

ـ لن تدع كبرياءك يمنعك من قبول مبلغ كهذا؟ نحن بأمس الحاجة إليه يا أبي... فكتابك لن يجهز قبل وقت طويل.

ـ سأسرع في إنجازه وسنقضي وقتاً أطول يومياً في العمل... لكنني لن أرض أن أذلّ نفسي بقبول مال من تلك المؤسسة... أو من ذلك... ذلك

الرجل الذي دخل بيتي منتحلاً شخصية سائق شاحنة... حقاً! كان علي أن أعرف. فقد بدا رجلاً مثقفاً... كيف خدعني؟

لم ترَ والدها يوماً غاضباً كما هو الآن لذا خافت عليه:

ـ سأعيده... سأضعه في مغلف ثم أرسله بريدياً فوراً.

أبعد يدها عنه:

ـ ستعيدينه الآن يا بروك لا إلى المحامي بل إلى آل لوكربي أنفسهم...

رفع يده ليمنع احتجاجها:

ـ أريدهم أن يفهموا أنني أرمي رشوتهم في وجوههم!

عندما دخلت بروك المكاتب الآجرية الحمراء الواقعة خلف الحدائق... ودّت لو أنها في أي مكان غير هذا. ليت والدها يدرك صعوبة ما طلب منها.

نظرت إليها الفتاة الجالسة خلف الطاولة... فقالت بروك:

ـ أريد رؤية السيد لوكربي... السيد أ. لوكربي.

ـ في الشركة رجلان باسم أ. لوكربي السيد ابنر لوكربي والسيد أندروس لوكربي.

وفكرت بروك قليلاً وهي تبتسم داخلياً: ماذا سيكون رد فعل الفتاة لو قلت لها اندي؟ لكنها أجابت:

ـ أريد الرجل المسؤول.

ـ إذن أنت تريدين أندروس لوكربي... إن لم تكوني على موعد معه فيؤسفني أن أقول أنك لن تستطيعي مقابلته... سأطلب من سكرتيرته أن تحدّد لك موعداً.

بينما كانت الفتاة تتصل تسارعت خفقات قلبها ثم قالت لهذه الفتاة التي تنتظر الرد من الجهة الأخرى:

ـ أريد رؤيته اليوم.

www.elromancia.com

فتمتمت الفتاة:

ـ مستحيل.

وعندما أجيب عن مكالمتها قالت:

ـ لدي سيدة هنا... آسفة ما اسمك؟... الآنسة ستون... تقول إنها تريد رؤية السيد لوكربي.

نظرت الفتاة إلى بروك فسألتها:

ـ آنسة ستون آخر الاسبوع القادم؟

ـ بل الآن.

ـ انه في اجتماع.

ـ الآن... وإذا لم يستطع مقابلتي أريد رؤية اندي.

سارعت الفتاة تتمتم في الهاتف:

ـ اوه... تقول اندي.

غطت السماعة بيدها:

ـ سكرتيرة السيد لوكربي سترى ما يمكنها فعله.

يا لردة الفعل السريع عندما ذكرت اسم «اندي» أمام العاملات هنا.

قالت الفتاة:

ـ نعم... هل أنت الآنسة بروك ستون؟... أجل إنها هي... حسناً... شكراً. سيراك السيد لوكربي الآن آنسة ستون، اتخذي المصعد سبيلاً للوصول إلى الطابق الثاني ثم ادخلي إلى الباب الثاني في الطابق من جهة اليمين.

ضغطت الزر إلى الطابق الثاني... اندروس...؟ آبنر؟

عندما وصلت إلى الطابق الثاني... لم تجد على الباب الثاني لوحة بل وجدت على الباب الثالث لوحة عليها اسم «أ. لوكربي» بالحرف الأبيض. وبعد دقة خفيفة على الباب الفارغ، دخلت لتجد الغرفة فارغة، فأزعجها هذا. صحيح إنها لم تترقب منه ترحيباً، ولكن الغرف الفارغة هي إهانة لها.

كان الباب الداخلي المشترك إلى يمينها مقفلاً... وهذا حاجز آخر، أي تحدٍ آخر.

في وقت كانت أعصابها تفور غضباً، تقدمت من الباب وفتحته... إذا وجدت أن السيد لوكربي هذا... بغيض كريه كالأفعال التي قامت بها شركته بعد حادثة أبيها، فستجعل من هذا الشيك كرة ترميها في وجهه.

وقالت ممسكة بمقبض الباب:

ـ سيد اندروس لوكربي؟

وأخيراً وقع نظرها على الرجل الجالس خلف الطاولة.

●●●

www.elromancia.com

٥ ـ فوق العشب قَلبان

مرت لحظات تشابكت فيها عيونهما. لم تمر سوى بضعة أيام منذ رأته آخر مرة... ومع ذلك، فهوة الزمان والمركز، والظروف التي فرقتهما بدت غير ممكنة الردم.

خفق قلبها وكأنه طبل يدوي في الأدغال. أمّا أنفاسها فتسارعت وتهدّجت. سألته، وهي تراقبه يقف ليحييها:

ـ ماذا تفعل هنا؟

كانت عيناه باردتين، وتصرفاته متحفظة:

ـ قد اسألك السؤال ذاته.

ـ لقد قيل لي انني سأقابل السيد اندروس لوكربي... وأنت لست... هل أنت؟...

أخرجت الرسالة من جيبها وأمسكت بالشيك:

ـ هل أنت من وقّع هذا؟

ـ أجل... التوقيع توقيعي، لماذا؟

عاد إلى كرسيه، ثم دعاها بصمت لتحتل المقعد الآخر. ولكنها بقيت واقفة... فهي الآن لا تعدو أن تكون رسولة أبيها الحاملة إليه غضبه، وسخطه، وكلماته نفسها:

ـ لماذا؟ لماذا؟ أوَ تظن حقاً أن هذا المال قد يعوض أبي عما فعله سائقك به؟ أوَ تظن أنه سيعيد إليه قدرته على استخدام ساقيه؟ أو يسمح له

بالانضمام إلى بعثات البحوث التي اعتادها... والتي كانت له أعظم بهجة في حياته... أم هل سيعيده استاذاً يسدي النصح والإرشاد لطلابه في دروسهم وأبحاثهم؟

تراجع اندي في كرسيه ليراقبها بهدوء. بينما هي تكمل بصوت يرتفع شيئاً فشيئاً:

ـ والدي يرى أنكم تدفعون هذا المال لإراحة ضميركم وهو على حق. لقد شاهدته للمرة الأولى يوم دخلت منزلنا، وشاهدت بالضبط الحالة التي أوصلته إليها شركتك، فقد غدا والدي مقعداً يعتمد في تنقله على كرسي ويعتمد في الوصول إلى حاجاته على الآخرين وهو إلى ذلك فاقد الأمل في الشفاء.

تبللت عيناها بالدموع، ولكنها لم تسمح لنفسها بالضعف أمامه، كان قد أمسك قلماً راح يرسم بواسطته على ورقة خطوطاً... وكان عمله هذا دليل عدم اكتراثه... تابعت:

ـ كان رجلاً رائعاً طويلاً مسيطراً. متقدّماً فكرياً يفوق الآخرين الذين هم في مستواه العلمي كما كان محترماً في الجامعة كلها، فالمجلات العلمية والصحف كانت تستشيره في مضمار اختصاصه وها هو الآن كما تعرف يعيش منسياً في كوخ صغير منفياً أكاديمياً.

وتلاشى صوتها، وأحست بضعف في ساقيها فسعت إلى المقعد الذي رفضت الجلوس عليه في البدء.

ورمى اندي القلم من يده. واستوى في جلسته... ثم قال:

ـ هناك شيء غفلت ذكره وهو أن الحادثة حصلت بسبب خطأ ارتكبه والدك لا شركتنا.

كورت الشيك في يدها:

ـ وهناك شيء غفلت عنه أنت وهو أن المال لن يشتري الصحة التي فقدها والدي ولا القدرة على الحركة.

www.liilas-romancia.com

رمت المغلف والشيك المكوّر في وجهه كما قال لها والدها، اصطدم بوجهه قبل أن يقع أرضاً.

دفع كرسيه إلى الوراء، ثم التفّ حول الطاولة، ووصل إليها ليمسك معصميها قبل أن تستطيع التفوه بكلمة اعتذار. قالت وهي تتلوى ألماً.

ـ لقد طلب... مني... والدي أن أرمي... هذه الرّشوة... في وجهك.

ولوى ذراعها إلى الخلف، ثم جذبها نحوه... وهو متقلص الوجه مشتعل العينين بلهيب يكاد يحرق عينيها. قال بصوت خشن:

ـ أيتها الثعلبة... أيتها الكلبة الناكرة الجميل... سوف...

فصاحت:

ـ أخبرتك أنها لم تكن فكرتي... لقد نفذت أوامر والدي... أرجوك...

ارتجفت شفتاها:

ـ أنت تؤلمني... أنت تؤذيني فإن كسرت ذراعي فسأعجز عن طباعة كتاب أبي، وهذا سيؤخر النشر أكثر... أرجوك...

وببطء... وعلى مضض، تراخت قبضته فحل الارتياح مكان الألم، لكن بعد ارتداد الدم إلى التدافع من جديد في ذراعها عاودها الألم فراحت تدعك ذراعها اليسرى بيدها اليمنى، ولكن الألم استمر. وكان هناك ألم في مكان آخر، استحال عليها تحديد مكانه... ولكن الدموع التي جاهدت لتكبحها تفجرت، فخرجت منها نشيجاً جعلها تشيح وجهها:

ـ آسفة... لأنني هدرت وقتك.

سمعت وقع أقدامه وراءها، فحسبته يريد طردها إلى الخارج... لا... سأخرج قبل أن...

استقرت يداه القويتان على كتفيها، وراح إبهامان رقيقان يفركان كتفيها برقة ويده انسلّت تبحث عن يدها... بعد ذلك جذبها خلفه نحو الباب

المشترك.

ـ تعالي معي... جوليا... سأغيب ساعة تقريباً. عندما أعود، أرغب في التحدث مع والدي.

أغلق الباب ثم قادها إلى الباب الرئيسي حيث شاهدت على بابه من جديد اسم اندروس لوكربي... وعلى الباب الآخر اسم آبنر لوكربي... فهل آبنر لوكربي هو والده؟

ـ أين سنذهب؟

ـ سترين بنفسك.

اصطحبها إلى الفناء الخارجي للمبنى حيث سيارته تقف في مكان خاص بها فتح بابها ثم أجلسها فيها وجلس هو على مقعد السائق. انطلقت السيارة بهما فوق الطريق.

ولم تمضِ برهة، حتى تركت السيارة الشارع المزدحم إلى طريق أقل استخداماً. بعد فترة قصيرة من المسير انعطف يميناً فتراءت لهما خضرة ساحرة لسهول منطقة اونتاريو الممتدة بجلال وحشي حتى تكاد تلامس السماء الرمادية الزرقاء بينما تقف أمامها بعيداً جبال تشرف على شلالات نياغارا التي يعتبرها سكانها الأصليون مقدسة.

أوقف اندي السيارة على جانب الطريق فوق العشب. وما أن توقف صوت المحرك، حتى عمّ سكون غزا السيارة عبر النوافذ المفتوحة مسيطراً على الأفكار عبر العيون والآذان ليصل إلى الجسد عبر تنفس الهواء العليل المندفع نحوهما.

الجمال المحيط بهما نقل إليها شرارات محت حزنها، ورغم ذلك عجز المنظر الممتد أمامها عن الاستئثار باعجابها سألته:

ـ لماذا جئت بي إلى هنا؟

ـ هنا يمكننا التكلم بهدوء بين أذرع التلال السّاكنة بعيداً عن كل

التأثيرات والضغوط.

- نتحدث عن ماذا؟

- عن المال الذي رميته في وجهي.

- رميته بناءً على أوامر والدي.

- وإن رجع الخيار إليك أكنت ستقبلينه؟

فكرت في الإجابة: فإذا قالت «نعم» فما هو السبب الذي ستدعم فيه ردها؟ عندما وقعت الحادثة اعترف والدها بشروده الذي سبّب الواقعة وهذا يعني أن لشركة التأمين كل الحق في إنكار مسؤولية الزبون.

تنهدت وهي تتأمل المناظر الملتفة حولها التي نسجتها أشعة الشمس بلونها الذهبي فألقت بعضاً من ضيائها فوق المنبسطات. لكن هذه الشمس لم تلبث أن دثرتها الغيوم فمنعت عنها ضياءها وسبيلها إلى الأرض. عندما تكلمت، كان صوتها متوتراً:

- قد يكون المال مساعداً لنا... فأنا بحاجة لسيارة أخرى... فالتي نملكها لن تدوم طويلاً. وأنت تعرف هذا بالطبع.

- هذا يعني أن المال الذي قدمته لكم كان سيحل مشكلة... ومع ذلك لم تقبلوه؟

- لا استطيع قبوله. فلن استطيع أبداً مخالفة رغبات والدي. إن معاناة أبي كبيرة هذا دون أن تلقي عليه ابنته عبئاً آخر... مهما كان السبب.

فتحت باب السيارة لتخطو إلى الخارج، فوق العشب الناعم... راحت عيناها تطوفان بالجبال والسهول، لتجد أن قرية، تقع كالعشب، في كتف إحدى التلال، وهي قرية بُنيت منازلها من حجارة رمادية وسطوحها من آجرّ أحمر. وهناك... بضع مبانٍ منتشرة يضع فيها المزارعون غلالهم. أما الأشجار المتفرقة والخمائل الخضراء فتختفي جاذبة الانتباه في وقت واحد إلى الحياة البشرية، وإلى دفء الحياة الريفية التي حولها. دنا اندي منها فجذبها إليه ليلف ذراعه على خصرها:

- بروك... كم أحب أن تحتويك ذراعاي من جديد... أتمانعين؟

وقبل أن يدع لها فرصة للإجابة التفت ذراعاه التفافاً حول جيدها فدُفِن وجهها في صدره، وبينما كانت تحاول جاهدة تحريك رأسها يمنة ويسرة فوق صدره في محاولة مزيفة للخلاص، اندفعت ذراعاها إلى عنقه، تلفه بشوق متجاوبة بعنف مع عناقه.

ابتعدت عنه، وقفت تحدق فيه، وقد أخافها عملها... لقد اندفعت في التجاوب. وراحت عيناها تنطقان من غير كلام: «عاجزة أنا عن مقاومتك لأنني أجدك لا تقاوم»... نعم... لقد سمع رسالتها الصامتة... وحرقت عيناه عينيها. وجذبها من جديد إلى جسده، يغطيها بذراعيه، ثم أنزلها ببطء إلى فراش العشب الأخضر تحتهما.

كانت المرجة التي استلقيا فوقها شديدة الانحدار لكنهما لم ينتبها في غمرة عواطفهما إلى هذا الأمر إلا بعد أن تدحرجا معاً ببطء أولاً ثم بسرعة، مبتعدين عن الطريق نحو الأسفل، إلى أن وصلا إلى مكان مستوٍ. تمسكهما ببعضهما وتحركهما معاً، أثارهما، وجلب لهما الضحك، واتسعت عيناها بالبهجة وامتلأ وجهه بالبسمة.

رفع رأسه نحوها مع أن ذراعيه استمرتا حيث هما كطوق فولاذي حولها. حدق في وجهها... فحاولت إبعاد التوتر عن الموقف، فقالت:

- على سترتك... قطع من العشب.

- وفي شعرك أغصان... وفي عينيك شعاع الشمس.

- لا يمكن أن تكون هنا... فأنت في منتصف يوم عمل.

- وإن يكن... فأنا صاحب العمل.

صاحب العمل... الرئيس، رأس شركة تدعى لوكربي... التي سلبت من والدها هناءه.

- بماذا تفكرين الآن. لقد تلبدت الغيوم في عينيك مكان أشعة الشمس وسأعيدها... من جديد...

وأمطرها بوابل من القبلات على رأسها وشعرها وأنهاها على أنفها... أغمضت عينيها وهي تدرك عمق أحاسيسها وأحاسيسه، رغباتها ورغباته حاجاتها وحاجاته.

عندما ابتعد عنها أخيراً همست:

ـ اندي... اندي... والدي سيتساءل عن سبب تأخيري... وعما فعلت.

أمسك ذقنها:

ـ وهل ستخبرينه عما كنت تفعلين؟

ابتسامته ساخرة، وعيناه تطوفان في وجهها، لكنها أحست بسؤاله وكأنه ظل طويل يمتد فوق صباح ذهبي، فقالت:

ـ إنه يشعر بالمرارة يا اندي. وهو غاضب بسبب الشيك، وبسبب الطريقة...

حاولت إزاحته عنها، ولكنها كانت كمن يحاول إزاحة شاحنة بيديه.

ـ الطريقة...

ـ الطريقة التي...

أزاحت رأسها جانباً، لتقع عيناها على منبسط من الأرض ساحراً. لو أخبرته، فسيبتعد عنها جسداً وروحاً. أعاد أصابعه إليها تمسك ذقنها لتلتفت إليه، فأجابت:

ـ الطريقة التي استقبل بها فرداً من أفراد عائلة لوكربي التي لن يسامحهم على ما فعلته شركتهم به.

ابتعد اندي عنها، ليتكىء إلى مرفقيه، ويحدق هو الآن في الجبال الخضراء والسهول الذهبية. لقد تركها... وهي تتوق إلى قربه، لكنه تراجع إلى عالم قاسٍ يختلف عن عالم هذه اللحظات الثمينة التي مرت بهما... وقالت:

ـ وهو إلى ذلك متكبر لن يقبل المال.

ـ بل فلنصفه بأنه عنيد. وإلى متى ينوي الاستمرار في لومنا على شيء كان هو السبب في حدوثه؟ أخبرتني أنكما بحاجة للمال... أليس هناك طريقة لإقناعه...

ـ أبداً يا اندي. إنه يعتبر المال على أنه إراحة لضميركم لذا طلب مني أن أرمي الشيك في وجهك.

عاد للتدحرج نحوها، وأسرها بين ذراعيه:

ـ وهذا ما فعلته بالضبط أيتها العفريتة المشاكسة... فهل أضربك على مؤخرتك على هذا؟

وأدارها على وجهها ثم هبط بيده، لا بلطف كثير، مرة، مرتين، ثلاث مرات على مؤخرتها.

هربت بروك منه ناقمة، ممتقعة اللون فتدحرجت مبتعدة عنه. ووقفت وراحت تنظف نفسها. وقف ببطء ليواجهها، فرأت شعلتين من نار في عينيه... فاستدارت لتهرب، وأخذت تلهث صاعدة المرتفع نحو الطريق، ووصلت إلى السيارة، وارتاحت واضعة يديها فوقها جاعلة منها حاجزاً بينه وبينها. وأنقذها منه مرور سيارات على الطريق... فأشارت إليها ضاحكة، والواحدة تمر تلو الأخرى فقال:

ـ كم أنت محظوظة يا فتاة، وإلا لكنت...

نظرته الساخرة إلى شكلها المشعث كشف مكنونات أفكاره...

أثناء العودة قالت له:

ـ ثمة عشب وأغصان على سترتك... فماذا سيظن العمال بمديرهم التنفيذي عندما يصل إلى المكتب وهو...

ـ سيقولون كان يتدحرج مع فتاة فوق العشب كما سيقولون إنني بشر على كل الأحوال!... هيا امسحي عني كل الأدلة.

مدت يدها ضاحكة تلتقط القطع على رأسه وسترته ومررت يدها على كمّيه وكتفيه، وتاقت يدها لأن تكمل المشوار إلى ظهره لتستعيد ذكر

عناقهما. فنظر إليها وابتسم، وكأنه عرف ما تفكر فيه:

ـ متى نلتقي ثانية؟

فأحست بعدم الاستقرار في داخلها، فارتجفت، وقالت:

ـ لا استطيع الإجابة عن هذا.

بعد صمت قصير، قال اندي:

ـ هل أفهم من هذا إنك راغبة، لكنك لا تريدين مخالفة إرادة والدك؟

ـ لن أخالفه أبداً فهو يعتمد عليَّ كلّ الاعتماد.

عندما اقتربا من منزلها قال:

ـ إذن لا مال ولا لقاء. أهذا ما تريدينه؟

أوقف اندي السيارة على بعد عدة منازل من منزلها... فشكرته بصمت.

ـ أجل هذا ما أريده.

وبنبرة قاسية قال لها:

ـ حسناً هذا ما سيكون لك. ألن تنزلي من السيارة؟

برودته جعلتها تحمرّ خجلاً... إذن هو لا يطيق صبراً ليتخلص منها، رغم تلك اللحظات الذهبية التي عايشاها. ها هي تتأخر في الخروج من السيارة منتظرة منه قبلة وداع.

صفقت الباب وراءها ثم انحنت لتقول له:

ـ شكراً على النزهة... لقد استمتعت بهذه الفرصة.

فرد عليها:

ـ شكراً لك على اللحظات الرومانسية... فأنا تمتعت أيضاً.

فهمت المعنى المزدوج لكلماته، فشدت على شفتيها ونظرت إليه دون أن تظهر تعبيراً على وجهها... وعندما انطلق بالسيارة مبتعداً أحست أن قلبها يخفق والدماء تتدفق منه وكأنها شلالات نياغارا.

نهاية الأسبوع التالي، توقف «فان» أحمر يحمل اسم لوكربي خارج

المنزل.

كانت بروك تقف أمام النافذة تنظر إلى الخارج لأن أفكارها أصبحت في المدة الأخيرة، لا تفارق صورة الرجل الذي أحاطته بذراعيها ومع ذلك فقد بدا وكأنه تحول إلى سراب... وعندما وقف اسمه أمامها، رُدَّت إليها الحياة. فمن قد يزورهما غيره؟ إنها لا تعرف إنساناً آخر من شركة لوكربي.

تعرفت إلى السائق إنه طوم، أما الراكب الذي كان يتهيأ للنزول عن المقعد الأمامي فهو غريب بالنسبة لها لكن في وجهه شبهاً من شخص تعرفه...

وما أن استقام الزائر المنحني الظهر قليلاً بسبب تقدمه في السن، حتى شاهدت بروك شعره الرمادي، ووجهه الذي لوحته الشمس، كان الرجل نسخة أكبر عمراً من اندي لوكربي. طافت عيناه بالمنزل البسيط أمامه، والتقتا بوجه الفتاة الناظرة إلى الخارج، انحنى ليكلم طوم... فتحرك «الفان» مبتعداً.

لوكربي آخر يسعى لزيارة منزلهما؟ نظرت إلى أبيها المستغرق في قراءة كتاب... هل سيخذل رجلاً يماثله عمراً؟

ابتسم الرجل وهو يغلق بوابة الحديقة وراءه متأنياً. فقالت بروك بسرعة:

ـ أبي... ثمة غريب قادم إلينا.

قطب ستانلي ستون حاجبيه:

ـ من هو هذا الرجل أهو جارنا هاملتون؟ دعيه يدخل...

ـ قلت لك غريب يا أبي.

وضع كتابه جانباً وبدا عليه السرور:

ـ أنا أرحب بالغرباء في منزلي، فلم يحدث أن رددت غريباً عن باب داري.

توجهت بروك إلى ردهة المدخل بعد أن علت الطرقات على الباب. كان الرجل يقف أمام العتبة مبتسماً، وكان عليها أن ترفع رأسها لتنظر إلى

www.liilas.com

وجهه... على وجنتيه خطوط عميقة حفرها الزمن، وحول عينيه خطوط خطتها ابتسامته.

ـ آنسة ستون؟

صوته عميق ويحمل لكنة المنطقة التي عاش فيها طوال حياته:

ـ اسمي لوكربي... آبنر لوكربي.

فرك يديه معاً، وبدا عليه القليل من الارتباك.

امتدت يدها، ثابتة ومتحدية:

ـ أهلاً بك في منزلنا سيد لوكربي... تفضل أرجوك.

تكلمت بصوت مرتفع ليسمع والدها، فجاءها صوته حاداً من الداخل.

ـ لوكربي؟ لن استقبل أي فرد من هذه العائلة في منزلي. في المرة السابقة استغفلني وجعلني أمدّ يد الصداقة له... أخرجيه من هنا يا بروك.

أحست بالارتباك، همست:

ـ أرجوك انتظر لحظة سيد لوكربي.

عادت إلى غرفة الجلوس لتواجه والدها فقالت بصوت خفيض فيه نبرات حاسمة غاضبة:

ـ أما قلت إنك لم ترد غريباً عن باب دارك يوماً... أُعلمك يا أبي... إنه رجل هرم لا ذاك اندي...

ـ سيد ستون؟

وإذ بالرجل في الغرفة، ينظر بلطف لا لبس فيه إلى الرجل الجالس في الكرسي المتحرك.

ـ إذا كنت لا تريدني هنا، فسأذهب... فأنا لم أدخل يوماً عنوة إلى مكان أو منزل لست مرغوباً فيه، خاصة إذا كان المنزل منزلك.

كأنما دخول الزائر الفجائي قد نزع أسلحة ستانلي ستون، فنظر إلى العينين البنيتين للرجل الكبير... ولم يعد بوسعه إنكار الخجل واللطف معاً الممزوجين، دون أي ريب، بالكبرياء في محيا الرجل. لا بد أن وميضاً قوياً

قد أضاء شعلة الغفران التي طال دفنها في دماغ ستانلي. فقال بصوت أجش:

ـ أهلاً بك في منزلي.

علمت بروك كم كلفته هذه الكلمة من عذاب فسألت بسرور:

ـ أترغب في شراب؟

فقال الزائر:

ـ لا أشرب شيئاً... لم ألمس شراباً منذ أن كنت أقود الشاحنة ولن أفعل الآن. فقلبي الهرم يسبب لي المتاعب وعلي الحذر... فما رأيك بفنجان شاي...

ـ بالطبع... وأنت يا أبي؟

هز رأسه إيجاباً.

تبدد شحوب ستانلي، فالغضب الذي اعتمل في نفسه وجعل عيناه باردتين تحول إلى شيء من الأدب في استقبال هذا الغريب الذي بدا شبيهاً بذاك الذي يحمل اسمه. أهو والده؟... بدا وكأنه يحتل الغرفة.

بينما كانت تهيء إبريق الشاي سمعت أحاديثاً تصدر عن غرفة الجلوس لم يحدث أن صمتت لحظة. عندما دخلت حاملة صينية الشاي كان آبنر لوكربي يقول:

ـ أجل... نحن عائلة عصامية سيد ستون...

لم يبدُ على والدها الامتعاض عندما لم يرفق اسمه بلفظة استاذ.

ـ ... والد والدي... في القرن الماضي... كان يعنى بالجياد والعربات. وقد وَرِث والدي عنه هذا العمل لكن الحيوانات غدت في عصرنا آلات نقل جبارة.

هز رأسه شاكراً بعد أن قدمت له بروك الشاي والسكر... وسأله ستانلي ستون، بعد أن أخذ الشاي رافضاً السكر:

ـ أكان هذا بعد العربات البخارية؟

هز آبنر لوكربي رأسه بقوة ونشاط:

ـ تغيرت بدورها... يا إلهي كم تغيرت! ولكن تقليداً واحداً استمر...

www.elromancia.com

لقد استمر تناقل العمل من الآباء إلى الأبناء... أما أنا فلدي ولدان اندي وأنتما تعرفانه وهو الرئيس حالياً.

التفت إلى بروك ثم إلى والدها وأشار إلى صدره.

ـ كان علي أن أتقاعد، لكنني أعرف أنه يدير الشركة بكفاءة. إنه يعرف كل شيء... من الألف إلى الياء ومن الياء إلى الألف. أما ابني الآخر فاسمه تود. لقد سعيت إلى أن ينال ولداي أفضل مستوى تعليمي وقد فاق اندي أخاه في كل شيء فقد كان دائماً الأول في مدرسته، لكن تود لم يرغب قط في العلم والدروس... فتزوج... وها أنا أنتظر زواج اندي الذي تدخل حياته الفتيات ويخرجن لكنه يوماً لم يجد من يرغب في الحفاظ عليها. هذا ما يقوله.

ضحك الزائر عالياً، ثم ارتشف رشفة كبيرة من فنجان الشاي الثاني. ووضعه أمامه فارغاً. فابتسم ستانلي ستون وسأل:

ـ أما زالت شركتكم تزدهر؟

ـ لن يتركها ولدي دون أن تزدهر.

قالت بروك:

ـ يقول اندي إنكم مصممون على ألا تعتمدوا على أي إنسان.

فهز ابنر رأسه بقوة:

ـ لقد قُدمت إلينا عروض... ولكن ما هو لوكربي سيبقى لوكربي... إنه فخر العائلة. لدينا حوالي العشرين مركبة، بعضها للحمولات الضخمة أي شاحنات تقدر على حمل ستة عشر وثمانية عشر طناً، وقد تصل بعض الحمولات إلى اثنين وثلاثين طناً.

سأله ستانلي، وقد تخلى عن كل تحفظه أخيراً في غمرة اهتمامه بحديث ضيفه:

ـ هل تحملون المستوعبات. (كونتينر)؟

هز ابنر لوكربي رأسه:

ـ ومقطورات برادات أيضاً... للنقل العالمي...

فقالت بروك:

ـ لطالما تساءلت ما هي هذه الشاحنات؟

ـ إنها مقطورات للنقل عبر القارات ويمكن أن تُختم في جمارك بلد ما حيث تبدأ رحلتها ولا تفتش أبداً في أي بلد تمر به حتى تصل إلى مقصدها. وهذا أمر مفيد جداً.

يبدو أنه تذكر سبب مجيئه في هذه اللحظات، ورفع يده الطويلة ليفرك مؤخرة رأسه. وامتدت ساقاه لتتقاطعا فوق بعضهما، ليس بسهولة، بل بتوتر. أخذت إحدى قدميه تتحرك إلى اليمين وإلى اليسار. فقدمت له بروك قطعة بسكويت، ورفضها.

ـ لدى آل لوكربي أموراً كثيرة تحتاج إلى عناية... فولدي اندي يتولى الأمور المالية وكل الأمور الأخرى. بينما ولدي تود يدير الكاراج.

فسألته بروك:

ـ حيث صُلحت سيارتي؟

ـ أتعلمين أنه شرف كبير أن يصلحها لك اندي بنفسه. إنه لا يفعل هذا عادة، خاصة لغريب... لا شك في أنك أعجبته.

اصطبغ وجه بروك بحمرة الخجل فضحك وأخفت لنفسها خبر تقدم علاقتها بابنه إلى منحنى حميم. ووجد ستانلي ملاحظة ابنر مثيرة للاهتمام ومسلية، فقال أمام ذهول ابنته:

ـ ولِمَ لا تعجبه؟ إنها فتاة جميلة... وذكية.

ـ أنت محق سيد ستون... يحق لك الفخر بابنتك. وأعتقد أن لديها لمسة السيدات... أنت أرمل... أليس كذلك؟ مثلي تماماً... أنا أشتاق لزوجة.

أخذ يحدق بحزن في قدمه المتحركة وكأنها ليست جزءاً منه وتنهد مكملاً:

ـ لقد كانت طيبة معي... زوجة تود ابني تدير المكتب... وابن أخي

دايفد يدير قسم السير من المصلحة، يأخذ التعليمات من الزبائن وما إلى ذلك.

قال ستانلي:

ـ يبدو الأمر أكثر تعقيداً من تنظيم أعمال ولو كانت ضخمة، أكثر مما كنت أظن.

وجدت بروك أباها يتقبل شيئاً فشيئاً وجود آل لوكربي في حياته. لكن إذا أرادت مقابلة اندي في يوم ما، كما طلب، فهل سيعترض؟... أم أنه...؟ ثم تذكرت أن أسبوعاً قد مر لم يتصل فيه اندي. بل لم يقم بأي جهد لمواصلة معرفتهما. قال آبنر:

ـ لقد أتيت لرؤيتك من أجل محطة إملاء الوقود التي نملكها... المضخات تعمل على طريقة الخدمة الخاصة والموظف الذي يقبض الثمن ترك العمل ذلك أنه غدا في السبعين من عمره وهو يعاني من ألم في ظهره، وتيد يدير ورشة التصليح والمحطة معاً، لكنه لا يستطيع أن يكون في كل مكان، وهذا يعني أنه لن يكون لديه الوقت للجلوس في المكتب لقبض المال... لذا كنا نتساءل... إذا كنت أنت يا أستاذ...

وأخيراً... لقب الوالد المعترف به... الإطراء الرقيق... بطاقة الاعتماد... الورقة الرابحة... آبنر لوكربي ليس بالغبي... وتابع:

ـ إذا كنت تستطيع الاستغناء عن ابنتك الذكية لتساعدنا في مكتب القبض في محطة بيع الوقود، إلى أن يعود العامل الرئيسي.

وهذه، كما تأكد لبروك، طريقة أخرى فكر فيها «الرئيس» للالتفاف على كره والدها المتجذر لهم، ولرفضه القاطع قبول أي مساعدة مالية. فهل سينظر إلى العرض كما هو أم سينظر إليه كما يعني؟

واحمرّ وجه ستانلي ستون... إنما لا غضباً وازداد احمراره من جراء استغراقه في الانتباه لمحادثة زائره. الفروقات في المركز، والوضع الاجتماعي ذابت بينهما. لقد برهن آبنر لوكربي على أنه رجل مثير للاهتمام.

وهذا هو كل المهم. رد ستانلي:

ـ بالطبع يمكنني الاستغناء عنها، طالما أن الترتيب مؤقت شريطة أن توافق معي.

ابتسم لابنته... لقد خدعه تماماً كلام آبنر الجريء فقالت بلطف:

ـ لكن كتابك يا أبي؟

ـ لست مستعجلاً عليه... أليس كذلك؟

كانت تعلم أن الواقع عكس ما قال لكن إحساسها بأنها ستعود إلى العمل ثانية حيث ستختلط بالناس كان له كبير الأثر في إغرائها بقبوله.

تابع آبنر:

ـ سندفع لك بالطبع أجراً جيداً في الساعة... فنحن آل لوكربي لا نبخل بمالنا.

توقف عن الكلام فجأة، وأخذ يتقل ببصره من الأب إلى ابنته، متذكراً إعادة الشيك... لو أن كلامه فهم على غير ما هو لخسر كل قضيته الآن. تدخلت بروك بسرعة على أمل نزع فتيل أي وضع متفجر قد ينتج عن كلام غير موزون:

ـ ونحن آل ستون لسنا متسولين سيد لوكربي... فلدينا كرامتنا أيضاً.

هز والدها رأسه موافقاً، فرد ابنر وهو يرفع طوله الفارغ عن المقعد:

ـ أنا مسرور جداً لسماع هذا. فلكل عائلة كرامتها. وولاؤها.

أكملت له بروك:

ـ وحبها لبعضها بعضاً أيضاً.

ـ وهذا بالتأكيد هو الأهم.

بدا تقدير ستانلي لذاك الرجل واضحاً من خلال مصافحته الحارة، حيث قال له:

ـ عُد ثانية يا آبنر... نادني ستانلي دون لقب السيد.

ـ فليكن ستانلي إذن. وسأعود لزيارتكم بالتأكيد.

التفت إلى بروك:

ـ يجب أن أسألك، هل ستوافقين على مساعدتنا؟

هزت رأسها بالموافقة فأضاف:

ـ وهل سيناسبك الغد؟ نحن نبدأ العمل في السادسة صباحاً... لكننا لن نتوقع قدومك قبل التاسعة والنصف.

ـ سأكون هناك.

عند الباب سأل الاستاذ:

ـ هل ستانلي اسمك الحقيقي أم انه اختصار لاسم ستانفورد؟

فضحك الاستاذ:

ـ في الحقيقة لا... اسمي الأصلي ستان ستون، وهو اسم مضحك إذ كان لوالديّ روح مرحة فسمياني بهذا الاسم!

قهقه ابنر لوكربي عالياً، وكان لا يزال يهتز من الضحك عندما وصل إلى باب الحديقة حيث ظهر أمامه «الڤان» الأحمر فجأة.

●●●

٦ ـ دوّامة المشاعر

كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف عندما أوقفت بروك سيارتها في موقف المحطة، وكانت قد اتفقت قبل خروجها من المنزل مع السيدة هاملتون على أن تقدم الأخيرة لوالدها وجبة الطعام.

أحست بقليل من التوتر لعودتها إلى العمل ثانية. وهي نظراً لطبيعة العمل قد قررت ارتداء جينز وقميص بدلاً من فستان في هذا النهار الحار. عندما وصلت رأت أن السائقين ينتظرون بصبر دورهم للوصول إلى مضخات التعبئة. وبدا أن أشعة الشمس قد بدأت تجذب السواح إلى المخيمات وإلى المناطق السياحية.

صدر صوت عن إقفال الباب، وتذكرت بروك آخر مرة كانت فيها في ذلك المكتب، يومذاك أجفلت الفتاة الجالسة وراء الطاولة عندما سمعت بروك تذكر اسم اندي وهذا أمر لا عجب فيه الآن، لأنها بمناداتها له بتلك الطريقة أوحت لها بوجود علاقة حميمة بينهما.

في هذه المرّة شغل المقعد رجلٌ في أواخر العشرينات من عُمره، يرتدي قميصاً طبع عليه كالعادة بالأحمر كلمة «لوكربي».

وما أن دخلت بروك حتى رفع الرجل رأسه وعلى وجهه انفعال غاضب بدل الترحيب... بدا وكأنه أدرك أنها ليست زبونة. ولعله قد أحيط علماً بوصولها!

www.elromancia.com

سألت:

ـ سيد لوكربي؟

كان له تقريباً طلعة أخيه البهية، لكنها طلعة خالية من القوة... فوقف وهو يقول:

ـ تـود لوكربي... أنا مسرور لقدومك أخيراً. لقد فتحنا أبواب البيع منذ الثامنة صباحاً، وأنا أحاول إكمال العمل. أنت الآنسة ستون أليس كذلك؟ شكراً للسماء. ضعي أشياءك في مكان ما، وسأعطيك درساً سريعاً عن كيفية العمل.

ـ سأقوم بهذه المهمة بنفسي يا تـود. تابع عملك في خدمة الزبائن.

أجفلت بـروك... من أين دخل اندي دون أن تحس به؟

ربما دخل من جهة المقهى، لا بد من وجود مدخل خلفي. حدقت في وجهه... وهي تفكر كم من الزمن مرَّ عليه منذ أن رأته؟ يبدو لها وكأنها سنوات.

وهو أيضاً كان يرتدي قميص لوكربي، كما يرتدي سروالاً ملطخاً بالشحم والزيت يتدلى من أحد جيوبه مفتاح البراغي. مدير أم... إنه هنا في العمل. انحنى فوقها واضعاً يداً على الطاولة، وأخرى على مؤخرة كرسيها. ابتسم لها ابتسامة جانبية أرقصت لها قلبها وجعلت فمها يرد الابتسامة بأخرى.

تحرك تـود مبتعداً، دون أن تتاح له فرصة الاعتراض على تلقي الأوامر ضمن دائرته الخاصة.

دخل زبون ليدفع بواسطة «بطاقة اعتماد». فشرح لها اندي كيفية التعامل مع بطاقة كهذه ثم دخل آخر فدفع نقداً، وآخر فضل الدفع بواسطة الشيك... ولم تمضِ فترة حتى فهمت بـروك كيف السبيل إلى التعامل مع الوسائل المختلفة في قبول الدفعات.

عندما انتهى الدرس، أحست بـروك بالإحباط... فلم يعد اندي واقفاً

قربها. لم تعد ذراعاه القويتان الخشنتان من جرّاء الشعر الأسود تلامسان ذراعها وهما تتحركان ليدلها على نقطة نسيتها.

كان الزبائن يدخلون واحداً تلو الآخر أمام ناظري اندي الذي راح يراقب طريقة معاملتها لهم. وبعد حوالي العشرين دقيقة، بدا راضياً عن تصرفها الناجح. لمّا تهيأ للمغادرة كان قد خفَّ قليلاً تدفق سيل الزبائن. اقترب منها ثم توقف في الجهة المقابلة من الطاولة ونظر إليها قائلاً:

ـ لقد سمعت ان والدك قبل اقتراح مساعدتك لنا دون اعتراض.

ـ أدهشني موقفه أنا أيضاً. لكنني أخال سحر والدك قد قدر على إخراجه عن طبعه، إن لوالدك شخصية رائعة.

أخرج المفتاح من جيبه، وضربه على راحة يده وقال عابساً:

ـ أنا سعيد لإعجابك به... إنه ليس في عافية تامة.

ترك تـود المكتب قائلاً إنه سيعود بعد دقائق... فقالت بـروك:

ـ يبدو أنك تحب والدك جداً.

ـ أجل... بم تشعرين الآن بعد عودتك إلى الحياة العملية من جديد؟

ـ يا له من شعور عظيم. إن العمل المنزلي أشبه ما يكون بالحجز وأنا الآن بدأت أشتاق إلى صحبة من هم في مثل سني لذا أشكرك على صنيعك.

فابتسم لها:

ـ لست أدري لماذا أزعجت نفسي... مع العلم أنك الفتاة الأولى التي ترفض الخروج برفقتي.

عاد تـود إلى المكتب ضاجاً، ونظر بتوتر إلى ظهر شقيقه:

ـ أما زلت هنا؟

لم يرد اندي، فوجه كلامه لبـروك:

ـ احترسي من أخي الأكبر آنسة ستون. فمن عادته أن يأسر بكلامه المعسول قلب كل أنثى تقع تحت ناظريه.

ضرب المفتاح بقوة أكبر على راحة يد اندي، ثم أضاف بإصرار:

ـ إنه ذئب آنسة ستون... ذئب يتخفى بثياب ميكانيكي.

نظرت بـروك إلى اندي، وقد أزعجها كلام الأخ الأصغر. ولم يفتها ما وراء كلامه من معانٍ كما لم يفت اندي منه شيئاً. وأضاف تـود:

ـ قد يكون ذئباً متخفياً بزي أنيق... وهذا يعتمد على الدور الذي يلعبه، عندما يلاحق فتاة ما.

وضع حداً لهذا الخصام الذي افتعله طرف واحد دخول زبون ولما أقبلت بـروك على استقبال الزبون خرج اندي.

عند الظهر، أبلغها تـود أن لديها ساعة للغداء. وعندما تعود سيذهب لتناول غدائه. ولمّا حاول أن يدلها على مكان المقهى أخبرته أنها تعرف المكان فكان أن نظر إليها بحيرة، ثم هز كتفيه.

اختارت طاولة تقع قرب النافذة، فراحت تتناول اللحم والسلطة اللذين حملتهما من طاولة خدمة الطعام الرئيسية. أخذت تنظر من النافذة لتشاهد عربات لوكربي تصل وتغادر بحذر فوق الأرض غير المستوية. إحدى هذه الشاحنات ذكرتها بتلك التي أوصلتها بقيادة ذلك السائق المتعجرف الضاحك في ذلك اليوم الحار.

وبينما كانت تفكر فيه وإذ به يدخل. فوقعت السكينة من يدها. التقطتها بارتباك، رمقته ورأسها إلى الأسفل بينما كان هو يدفع ثمن طعامه تاركاً الفتاة تضحك على نكتة قالها لها. حاولت بـروك دون جدوى أن تتظاهر بعدم رؤيته.

لكنّها سمعت صوته يقول:

ـ لا رمال أمامك لتخفي رأسك. فاستخدمي الطعام الذي في طبقك.

ثم جرَّ كرسياً ليجلس أمامها على الطاولة ويكمل:

ـ أنت تفكرين بالشيطان، فحضر؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه.

ـ أجل.

ـ أكانت أفكاراً جيدة أم سيئة؟

ـ كانت مزيجاً من النوعين معاً. فقد تذكرت ذاك اليوم الذي أوصلتني فيه إلى بيتي مدعياً أنك نكرة. ويا لك من نكرة، نكرة تدير عملاً ضخماً وتملك أفخم السيارات وأغلاها ولها القدرة المذهبة على تغيير جلدها من ثوب مدير نافذ القوة إلى ثوب عامل يصلح السيارات.

أحنى رأسه فوق وجبته الخفيفة المؤلفة من الخضار المسلوقة:

ـ شكراً لك سيدتي... عندما سأحتاج في المرة القادمة إلى توصية. سأعطي اسمك للسائل. هذا إن أذنت سيدتي؟

ابتسمت عيناه، فغاص قلبها وهو يردف:

ـ لكن السيارات وحدها التي أعرف إصلاحها، بل الشاحنات أيضاً. فلا تملك شاحنة أعجز عن تصليحها، فعند الحاجة تريني أرتمي تحتها بغية إصلاحها.

ـ وماذا عن شقيقك الذي لا يبدو أن له ذكاءك أو موهبتك أو حماستك.

ـ اذن لقد لاحظت هذا؟ أنت مخلوقة ذكية لتكوني امرأة...

وضع يده على يدها وقد ثنت منديل الورق لتقذفه به:

ـ أنت تتناولين الطعام مع «الرئيس» فأحسني التصرف.

كانت المرأة التي على الصندوق تراقبهما، لذا احمرّ وجه بـروك وقالت:

ـ آسفة يبدو أن نصف الموجودين وزوجاتهم يرمقوننا بنظراتهم.

ـ لا عجب في ذلك، لأنه لم يحدث أن هددت موظفة رئيسها بضربه بشيء ما على رأسه.

بدا عليها الخجل، لكنها لم تستطع منع ابتسامة وهي تقف لتذهب، وانقلبت بسمتها إلى بسمة استفزازية:

ـ أرجو أن تعذرني سيد لوكربي... فأنا أخشى أن أتأخر في العودة وهذا لن يفيدني في يوم عملي الأول حتى وإن كان «الرئيس» هو من أخرني!

وقف نصف وقفة تأدباً ثم قال:

ـ هل تخرجين معي الليلة؟

اعتمت تقطيبة عينيها:

ـ أظنني، أخبرتك أن والدي لن يعجبه...

فقاطعها بجفاء:

ـ انسي ما طلبته.

عاد إلى طعامه.

عندما عادت إلى المنزل كان والدها وحده غارقاً في عمله لا كما تصورته غارقاً في القلق الذي يبدو أن أحداً لا يشعر به سواها.

ـ هل عملت كثيراً؟

ـ ليس كثيراً... لقد شغلني البحث وقتاً طويلاً فأنت تعلمين مدى اهتمامي بانتقاء المفردات... حسناً كيف كان يومك الأول يا ابنتي بعد سنتين من البقاء في المنزل؟

ـ كان العمل ممتعاً للغاية وإن كان لا يتعدى قبض الأموال من الزبائن، فالعقل لا يكاد يقوم بأي نوع من عمليات الطرح والجمع إذ يحل محله الة تقوم بالمهمة.

ـ تقنيات عالية... أليس كذلك؟

عندما هزت رأسها، أخذ يتمتم وكأنه يلعن كل من هو مسؤول عن وضع الالكترونيات والتقنيات قيد الاستخدام بدل الإنسان. وعاد إلى عمله.

ـ أتريد فنجاناً من الشاي يا أبي؟

فرد أنها فكرة رائعة... وقال لها وهي متجهة إلى المطبخ أن تتناول غداءاً جيداً...

بينما كانت تشرب الشاي، ووالدها يعمل، فكرت في دعوة اندي لها. تلك الدعوة التي تمنت لو قبلتها. والتي لا تشير إلى خبث بل إلى صداقة خالية من الارتباطات العاطفية... ولكن هل ما تطلبه هو الصداقة؟ أليس التورط مع رجل كهذا هو ما تشتهيه، وما ستقبله بكل شوق إذا ما عرضه.

تنهدت ثم وقفت تضع الفناجين والابريق فوق الصينية في طريقها إلى غسلها. بعد أن انتهت من تنشيفها الياً تمنت لو يصبح عملها في شركة لوكربي دائماً أو أنه لا ينتهي عندما تدق الساعة معلنة الثالثة تماماً.

كانت تنظف صحون وجبة المساء عندما حدقت إلى الخارج حيث تراءت لها الشمس تؤذن على المغيب وكأنها تقبل على صمت مطبق. فليل الصيف رغم الحركة التي فيه يبدو لها فارغاً. بينما كانت تتأمل الفضاء الرحب والطريق الممتدة أمامها شاهدت سيارة ضخمة تقف خارجاً. لم تصدق عيناها ما رأتاه فالرجل الواثق من نفسه، الداني من المنزل ليس إلا هو. ركضت تفتح الباب دون أن تخفي شوقها إليه.

لم تستخدم سوى الكلمات لمنعه من الدخول:

ـ لقد قلت لك... لا لن أخرج معك لأنني...

وضع اصبعه على فمها:

ـ لم تقولي لي «لا» أو«نعم» قلت فقط إن والدك.

بحركة سريعة أشارت أن والدها قد يسمعه...

سألها بحركة من شفتيه إذا كان يستطيع الدخول فأجابت بالطريقة نفسها: آسفة! وتنحت جانباً لتدعه يدخل.

توجه بخطى واثقة إلى غرفة الجلوس... أحست بالذعر وتمنت أن يكبت والدها غضبه عند رؤيته فتبعته مسرعة.

ـ مساء الخير استاذ ستون.

ـ مساء الخير سيد لوكربي...

كان رداً رسمياً مدروساً، غاص له قلبها فهي تعرف خير معرفة طباع أبيها، وهو في هذا الوقت يبدو في مزاج غير رائق أو غير قابل لليونة. تقدمت لتقف قرب اندي الذي قال لمضيفه الكاره وجوده:

ـ أتيت أطلب إذناً منك في استعارة ابنتك.

التفتت عينا الاستاذ المظللتان بالألم بالعينين الرماديتين الناظرتين إليه من علو. لكن رد ستانلي كان عنيفاً كما كان جسده فيما مضى.

ـ هل لي أن أسألك عن هدفك من وراء ذلك؟

ـ هدفي كل هدفي أن ترافقني في نزهة مسائية. أما بشأن نواياي فهي شريفة.

أجفل الاستاذ قليلاً... فهل خُيِّل له مستقبلاً يعيش فيه وحيداً فريداً؟ وهل إحساسه بأنه لن يقدر على الاحتفاظ بابنته له إلى الأبد أخافه.

أدار رأسه إليها ببطء... لكنه قبل أن يسأل أو ترد قرأ في عينيها كل ما يحتاج لمعرفته. أدار وجهه إلى اندي:

ـ كم ستطول هذه النزهة الليلية؟

التفت اندي إلى بروك وقال:

ـ السؤال لك.

فأجفلت وقالت:

ـ ساعة، أو ساعتين؟ لست أدري، إنها فكرته، لا فكرتي.

تنهد تنهيدة لا صوت لها. لكنها ملأت رئتي ستانلي ثم أفرغتهما وكأنه يواجه شيئاً قرر منذ زمن أن لا علاقة له به، الشباب، الحركة، والتمتع بالحياة. وقال:

ـ إن كنت تريدين الخروج يا ابنتي فلك ذلك.

ـ شكراً لك يا أبي.

أحست برغبة في رمي ذراعيها حول عنقه لتأكيد شكرها. قال لها اندي:

ـ احضري معك سترة أو أي شيء آخر.

فهزت رأسها وأسرعت إلى غرفتها بينما وقف اندي ينظر إلى الرأس الرمادي المنحني. وفي عينيه كل التعاطف والمشاعر لكن الاستاذ لم يرَ منها شيئاً. قال اندي:

ـ شكراً لك استاذ ستون.

ـ على ماذا سيد لوكربي؟ على رفقة ابنتي؟ إنها تستاهل كل خير.

فبالنسبة لي رفقتها لا تقدر بثمن.

سمعت بروك الحديث المتبادل، فوقفت تراقب من مكانها، فهل تفوه والدها بهذه الكلمات بدافع التملك أم التحذير؟

تقدمت لتقول:

ـ ساعتين فقط يا أبي... هذا كل شيء.

ـ تمتعا بنزهتكما...

ظلال الشمس الآفلة بدأت تلقي بنفسها فوق قمم أشجار التلال، مسببة بذلك ظلاماً راح يكتسح السهول الممتدة حولهما.

لم تكد تصدق بروك أنها حقاً تجلس إلى جانب الرجل الذي أسرها وشغل لبّها منذ أول لحظة التقت فيها عيونهما. وسألته:

ـ لم تشرح لي بعد سبب مجيئك لأخذي؟

هل حقاً ترغب في الشرح؟ ألا يكفيها أنهما هنا معاً؟ فهذا بحد ذاته حلم، والمجنون وحده يمزق الحلم ليكتشف مما هو مصنوع!

ـ لقد قلت ان والدك لن يعجبه الأمر. وكان هذا تحدياً لم استطع مقاومته.

إذن السبب تحدّ لم يستطع مقاومته... لا شيء آخر... حسناً...

تنهدت ثم راحت تتأمل المناظر التي تمر بهما... كانت غبية! لقد مزقت حلمها بيدها فإذا بها تجده أوهى من خيوط العنكبوت.

قال لها:

ـ نظريتك لم تقاوم الريح القادمة. أمّا نظريتي القائلة بأن كل الحواجز قد تذلل فقد حطمت العوائق التي كانت لتعيقها.

كانا يمران قرب نهر الهمبر على الشاطىء الشمالي لبحيرة اونتاريو وقد بدأ الضباب يتكون... يخفي نصف التلال من حولهما ويضفي إلى جمالها بعض الغموض. استدار اندي بسيارته بحدة ولم يطل الوقت بهما حتى أشرفا من بعيد على أجمل منظر في العالم منظر وادي نهر الهمبر الممتد إلى البحيرات.

ـ هل زرت المكان من قبل؟

ـ مرة واحدة عندما قدمنا إلى هنا. لقد دفعت بكرسي والدي في الحدائق حتى أشرفنا على منظر النهر.

أوقف اندي السيارة وقال:

ـ تعالي... فلتتمشَّ لكن ضعي سترتك على كتفيك فالطقس بارد هنا.

ارتدت سترتها فوق فستانها الصيفي الزهري اللون وتبعته، فاستدار منتظراً إياها مادّاً يده التي أمسكت يدها بتملك. فابتسمت له، والسعادة تضج في جسدها، ورد لها الابتسامة ضاغطاً باصبعه على قمة أنفها.

سارا صعوداً إلى أن وصلا إلى قمة تلة تشرف على الوادي الأخضر الناعم الممتد بمرجاته المزدانة بالأزهار المختلفة اللون بين الشجيرات والأشجار.

جرَّ اندي بروك خلفه مبتعداً عن طريق الأقدام إلى بقعة منعزلة فيها خلع سترته ليفردها على الأرض، فجلس فوقها وربت الأرض إلى جانبه بيده... ولم تنتظر بروك دعوة ثانية. إذ جلست قريبة منه فشعرت به مسترخي العضلات، جائل العينين في الأشجار المنتشرة حول التلال، وكأنه يحاول أن ينهل من جمال المنظر وجلاله.

أما هي فلم تستطع كسب شيء من هذا الهدوء الداخلي. وأنّى لها ذلك وذراعه تلامس ذراعها، باعثة فيها من قمة شعرها الأشقر الحريري إلى أخمص قدميها شعوراً دافئاً بالتجاوب لقوة جاذبيته التي تنبع من جسده. أفكارها لم تقدر على الشرود والطواف بعيداً كما كانت أفكاره.

المشاعر التي تعتمر بطريقة تقضّ هدوء نفسها كانت جمالية فنية لكنها مع ذلك لم تَخلُ من مشاعر جسدية... كانت تريد اهتمامه، كل اهتمامه، لها ولها وحدها... آه لو تمد يدها لتلامس ركبته...؟

أشار بيده إلى النهر الممتد من بعيد:

ـ لقد بدأ النهر يختفي في الضباب، إنه مكان شهير للحب في التاريخ.

كتمت بروك تنهيدة، معللة نفسها بالصبر، لتتوافق مع قطار أفكاره، لكنها أخطأت التعبير عندما قالت:

ـ إنه مكان رائع لهروب الأحبة إليه.

فاستدار إليها مبتسماً، مادّاً الساقين، تدعم يداه جسده.

ـ وهل توافقين على الهرب مع الرجل الذي تحبينه؟

انصب اهتمامه كل اهتمامه عليها في هذه اللحظة، لكنه اهتمام فيه شيء من تعقيد لم تستطع تفسير كنهه فأجابت على سؤاله ببطء:

ـ ضد إرادة عائلتي...؟ خاصة إذا كانت هذه العائلة رجلاً واحداً وحيداً... كيف استطيع أن أشرح لك؟ السؤال لا مجال لطرحه... أليس كذلك؟

ـ لا... لا مجال لطرحه.

سادت لحظات صمت، ثم جلس، وأدار رأسه إليها ليضغط مرة أخرى باصبعه على أرنبة أنفها.

ـ أنف دقيق... مغرٍ كل الإغراء أيضاً.

جذبها من كتفيها إليه فطبع قبلة على أنفها... ثم أبعدها عنه يتأمل أهداب عينيها الطويلة، وفمها المبتسم، وذقنها المستدير. وكأنما قرأت أفكاره فهمست:

ـ لا يا اندي... لا.

حتى وهي تسمع نفسها تردد الكلمات أحست بالاشتياق إليه أكثر فأكثر.

أغمضت عينيها وذراعاه تمتدان لتطوقاها... ودون وعي منها طوقت ذراعاها عنقه... ولكن عقدة الذنب داخلها أخذت تتصاعد، وهي تستجيب لمداعباته... وسمعت صوتها يقول لها... والدي... أنا لست مخلصة له... أنا أتصرف كالخائنة...

كانت يداه طوال الوقت تريدان وتطلبان أكثر فأكثر وكانت سعادتها تغشي بصرها وكأنها تواجه الشمس في يوم لا غيوم فيه. وأخيراً ابتعد عنها قليلاً

ليواجه عينيها قائلاً لها بصوت أجش:

ـ لقد سحرتني عيناك الضاحكتان وفمك المغري وشعرك الذي استعار من خيوط الذرة الناضجة لونها الذهبي... إذا طلبت منك الزواج مني... فماذا سيكون ردك؟

اشتدت أناملها ضغطاً على مؤخرة شعره الكث... كان ضوء النهار قد أخذ يتلاشى حتى صعُبت رؤية عينيه الآن.

فهمست:

ـ هل تعرض الزواج علي رسمياً؟

ـ أقوم بتجربة... ليس إلا.

غمرها مرة أخرى بين ذراعيه... فردت وهي تشهق، وتتمنى لو تقوى على الرد كما يريد قلبها.

ـ لا استطيع الزواج منك.

لو سألت قلبي، وأفكاري لقالت نعم... نعم... أرجوك! في العتمة التي حلّت شاهدت شفاهه تشتد فوق بعضها.

ـ لا بدّ من سبب لمثل هذا الرد المشجع لرجل مؤهل مرغوب قوي مثلي.

جعلتها التعاسة تغمض عينيها، فبعد أن كان هذا ردها لا عجب أن ابتعد عنها أو إن امتنع عن رؤيتها ثانية.

ـ أنت تعرف السبب.

ـ والدك؟

فهزت رأسها:

ـ إنك لا تعجبه... أتمنى لو أعرف السبب... لكنه معجب بوالدك...

كما توقعت تدحرج مبتعداً عنها ليستلقي على ظهره، فأكملت:

ـ يبدو أنك أنت أيضاً لا تحبه... فلماذا يا اندي؟

ـ مشاعري بالنسبة لوالدك محايدة.

راح القمر يرتفع فوق سماء مخملية سوداء، فتابعت كلامها:

ـ ثمة سبب اخر يمنعني من قبولك زوجاً وهذا السبب ذكرته يوماً وهو ضعف إرادتك أمام النساء الفاتنات.

ـ صحيح.

كلمة واحدة جعلت جسدها يرتجف.

ـ لا استطيع أبداً الزواج من رجل لا أثق به. رجل قد يتركني من أجل امرأة أخرى تروق له.

لم يردّ أيضاً. إذا كانت تريد منه الاعتراف بحب لا يموت لها، أو بالإخلاص لها مدى الحياة فأملها ذاك باء بالإحباط والفشل. فردت:

ـ على كل... لقد قلت لك، إنني لا أريد علاقة جديدة قبل مدة طويلة، فالخطوبة التي فسختها منذ فترة وجيزة ليست بالأمر السهل الخالي من الوقع الشديد على النفس لكنك لن تعرف شدة هذا الوقع أبداً. فأنت لم تقع في فخ أية امرأة بعد أليس كذلك؟

رد عليها ببرود:

ـ صحيح... لن أعرف. دعي عنك الأعذار.

هب واقفاً كالطود ينتظر وقوفها ليأخذ سترته التي التقطها في وقت كانت هي فيه ترتدي سترتها... تركها وابتعد.

خشيتها من أن يتركها وحيدة في هذا الظلام الدامس جعلتها تركض خلفه. نادته:

ـ اندي... اندي...! لا تتركني وتبتعد...

توقف... ثم سارا معاً، ولكن منفصلين، تابعا طريقهما عائدين إلى السيارة. أمام احتضار أنوار النهار الأخيرة بدا الوادي وكأنه ملك حليم يحتوي بين جنباته أسرار الزمن... ليهمس إلى من يرغب في أن يسمع قصة العشاق الذين هربوا معاً عبره.

●●●

www.elromancia.com

٧ ـ إليه تستكين

كان الصباح قد انتصف عندما توقفت سيارتان كبيرتان في فناء محطة الوقود. نظرت بـروك إليهما، فوجدت إن إحداهما كانت سيارة بورش زهرية اللون مكشوفة، والأخرى سيارة تعرفها جيداً.

السائق الذي برز من السيارة الأولى كان دون شك أنثى... ثوبها الحريري الزهري، الذي لا بد قد انتقته ليتناسق مع لون سيارتها، كان يلتصق بكل روعة بقدّها الرشيق. أما السّائق الآخر فتقدم من هذه الأنثى وراح يحادثها. فسألت بـروك:

ـ من هذه المخلوقة الجميلة؟

فأجابها تـود، رداً سيئاً يشير إلى سوء طباعه:

ـ إنها فتاة انـدي الحالية... فهو يجتذب كل النساء، صغيرات أو كبيرات، فقيرات أم غنيات.

مررت لسانها فوق شفتيها:

ـ هل هي... غنية؟

ـ والدها يملك مصرفاً عالمياً... وهي تدعى سيلينا بايليس. هل تريدين مزيداً من المعلومات.

هل الرجل الذي يصحب تلك الفتاة الآن هو ذاك الذي باح بحبه لها عند الجبل ليلة أمس؟ هل هو القائل لها إنها قد سحرته؟ أهو من سألها بطريقة ملتوية: ماذا لو سألتك الزواج مني؟ الزواج منه؟ كيف سألها وفي حياته

امرأة كهذه؟

دخل زبون، اهتمت بـروك به ثم دخل انـدي ورفيقته، وحتى بعد أن خرج الزبون أبقت بـروك عينيها بعيدتين. وسمعت انـدي يقول:

ـ تـود... أرسل من يضع سيارة سيلينا في المرآب الخلفي... أتسمح؟

سمعت وقع خطوات... ثم قال انـدي:

ـ بـروك.

ارتفعت عيناها تنظران إليه، ثم تحركتا إلى الشابة المتكئة إلى طاولة المكتب تتأملانها، كان شعرها بنياً كثيفاً. ينسدل من جبهتها إلى كتفيها. شفتاها ملونتان بالأحمر القاتم بشكل جميل، ورائحة عطرها ملأت الجو... فسألته بـروك بلهجة باردة:

ـ نعم سيد لوكربي؟

ـ بعد يوم الجمعة لن نحتاجك هنا... فلقد حصل الموظف المريض على اذن من أطبائه لمعاودة العمل في الاسبوع القادم... وسيدفع لك تـود ما ندينه لك من أجر... لكن ثمة مشكلة ستقع في المكتب الرئيسي.

مع أن قلبها غاص للخبر الأول إلا أنها هزت رأسها بهدوء... إلا أنها عند ذكره الخبر الثاني أشرقت بالسعادة فهو لم يقصد ازاحتها من وجهه. تابع انـدي:

ـ ابن عمي دايفد، لديه مُساعدة تتوقع أن تلد طفلها بعد وقت قصير، وعليها أن تتوقف عن العمل. فهل يمكنك المجيء لمساعدتنا هنا يوم الاثنين المقبل؟

ـ عمل مؤقت؟

ـ لا... بل دائم.

ـ آسفة لا استطيع العمل بدوام كامل بسبب والدي... ولن استطيع توقع أكثر مما يقدمه لنا الجيران من مساعدة.

استقام انـدي وقال وهو يبتعد:

www.elromancia.com

ـ أفهمك.

تحركت معه سيلينا، وتقدمته نحو الباب، الذي أوصده وراءهما دون كلمة أخرى.

أطبقت الغيرة على عنق بروك، وهي تشاهد سيلينا، تصعد إلى وراء مقود سيارة اندي لتقودها إلى كاراج التصليح حيث كان اندي قد سبقها إلى سيارتها الواقفة هناك. كانت تقود السيارة وكأنها معتادة عليها منذ زمن. تمالكت نفسها لتنظر إلى تود وهي تأمل أن لا يكون قد لاحظ ردة فعلها، لكن التواء شفتيه أعلمها أنه لاحظ جيداً. سألها:

ـ وأنت أيضاً... إلى أي مدى وصل معك؟ لقد قال انه وجدك في ورطة على الطريق العام... فما الثمن الذي طلبه منك على كل ما فعله لأجلك؟

فكرت... سأنتقم من أحد آل لوكربي ولو كلفني هذا حياتي. أجابت:

ـ تدحرج فوق العشب... عناق... عناق حقيقي لا شيء لطيف فيه، وطلب زواج.

وانفجر تود لوكربي:

ـ ماذا؟ هل صدقته؟

قالت متحدية وهي تتمتع باضطراب تود:

ـ ولماذا لا أصدقه؟ ألست جيدة لمدير عام شركة لوكربي؟

ـ لم أقصد هذا... لكن والدك... أليس هو الاستاذ ستون؟

ـ أجل... وما دخل هذا بالأمر؟

أشاح تود بنظره عنها محرجاً:

ـ لا شيء... لا شيء إطلاقاً... انظري آنسة ستون... لا أريدك أن تتأذي ولا أريد جرح مشاعرك، ولكن لا يمكنك الثقة باندي.

ـ بشأن النساء؟

ـ بشأن النساء وبشأن كل شيء.

قالت بروك، صادقة هذه المرة:

ـ أتعلم سيد لوكربي... أنا لا أصدقك.

ـ حسناً... لقد أوقعته وأنت مخطوبة. اربتي على نفسك مهنئة لنفسك. فأنت أول امرأة أجبرته على طلب يدها أعني... لأنه طلب يد الكثيرات في الماضي لأشياء أخرى.

وفتح باب المكتب فدخل زبون مستعجل، لم يلاحظ مدى احتراق وجنتيها بالدم ولا سرعة تنفسها.

أحست بروك بالراحة عندما حل وقت الذهاب إلى المنزل. اثناء اجتيازها الفناء متجهة إلى سيارتها، خطر لها أن يكون تود قد صدّق ادّعاء الخطوبة لأندي، فاستدارت راكضة إلى المكتب:

ـ سيد لوكربي... بشأن الخطبة... ليس الأمر صحيحاً.

رفعت يدها وهي تلهث:

ـ أترى... لا ارتدي خاتماً.

ـ عدم وجود خاتم لا يعني عدم وجود خطبة... أعطي اندي الوقت ليهبك خاتماً ماسيّاً يليق بملكة.

ـ لا، لا!... ألا تفهم... الأمر ليس صحيحاً.

ـ لا شيء ممّا قلته صحيحاً؟

ـ حسناً... صحيح أنه طلب يدي... ولكن...

أقبلت ساقية من الباب الموصل إلى المقهى:

ـ سيد لوكربي، أنت مطلوب. إنه زبون يقول إنه يعرفك منذ زمن بعيد وهو لا يجيء إلى هذه المنطقة عادة.

ـ حسناً... سأحضر بعد دقائق... ها قد أتى جورج.

كان الشاب الذي سيستلم مكان بروك وقال لها مبتسماً:

ـ آسف لتأخري... بإمكانك الذهاب الآن، إلا إذا أحببت البقاء لمرافقتي.

فضحكت بروك وخرجت.

عندما وصلت إلى المنزل وجدت والدها بمزاج مشرق. كتبه وأوراقه

موضوعة إلى جانب، وفي غرفة الجلوس فنجاني قهوة فسألته:

ـ هل أتاك زائرون؟ أم أن السيد هاملتون كان هنا؟

فابتسم والدها وقال:

ـ إنه ابنر لوكربي... لقد زارني لتبادل أطراف الحديث.

أخفت بروك دهشتها، لقد قال انه سيعيد الزيارة ولقد وفى بوعده.

تابع والدها ضاحكاً:

ـ لم نتوقف عن الكلام... كان يخبرني عن طفولته... إن هذا الرجل لشخصية ممتازة.

لملمت بروك الفنجانين الفارغين وصحنيهما... وتابع ستانلي:

ـ وهو رجل طيب كذلك... رجل طيب... ولكنه ليس بصحة جيدة...

ـ كذلك أنت يا أبي.

ـ ربما... ولكن بطريقة مختلفة. لقد قلت له اننا زوج من العجائز العاجزين.

ضحكت بروك وأشرق قلبها لمعرفتها أن والدها قد وجد صديقاً من جيله. مع أن هذا الصديق كان خلال ثمانية عشر شهراً عدواً له. ارتابت في أن يكون والدها قد سامح آل لوكربي لما فعله أحد سائقيهم به، لكن يبدو أنه بينه وبين نفسه قد وافق على الغفران.

قال لها والدها:

ـ لدي عمل لك كان ليكون أكثر لولا مجيء ابنر. لكني سررت بأخذ قسط من الراحة.

أخذت بروك منه الأوراق المكتوبة، وتابع ستانلي:

ـ أخبرني أن ابنه اندي سافر إلى هاليفكس حيث سيبقى حتى الاسبوع القادم. يبدو أن لديهم مكتباً في تلك المنطقة... فهم يسعون إلى توسيع المؤسسة إذ يريد ولده فتح فرع اخر له في أمريكا.

فترددت قليلاً ثم سألته:

ـ هل بدأت تحب اندي أكثر مما كنت يا والدي؟

ـ ليس بشكل خاص.

ـ لماذا لا تحبه؟

ـ لا أفهم السبب. ثمة شيء ما في عقلي الباطني تجاهه لكن بما أنني لست ضليعاً بالتحليل النفسي... فسأترك الأمر دون تفسير! هل يهمك حبي له أو عدمه؟

فرفعت كتفيها صعوداً ونزولاً في هزة عدم اكتراث مصطنعة:

ـ ولماذا يهمني؟ لقد كان...

علقت الكلمات في حنجرتها... وابتلعت ريقها بصعوبة وهي تكمل قولها:

ـ ... لقد كان لطيفاً معي، فهو من أصلح سيارتي.

توقفت فترة طويلة، ثم أكملت:

ـ أعلمت أنهم لن يحتاجوا إلى خدماتي بعد يوم الجمعة... وبناء على ذلك سأعود للبقاء في المنزل النهار كله.

أمام دهشتها قال والدها:

ـ هذا مؤسف... إذ كنت تغيبين عن البيت بضع ساعات على الأقل. لقد بدأت أشعر بعقدة الذنب لاحتكاري وجود فتاة شابة...

فقاطعته بتنهيدة تسامح:

ـ أعرف ما ستقول... يجب أن أعاشر الناس لكنني راضية بما أنا عليه.

أهي حقاً راضية؟ برزت أمام مخيلتها صورة وجه رجل مبتسم شاهدته للمرة الأولى على الطريق، رجل استولى عليها وعلى عمق أحاسيسها لكن دون أمل... علمت أنها أبعد ما تكون عن الرضى، فهي يائسة من أن يحبه والدها. ويائسة كذلك من رؤيته ثانية. أوقفها والدها أثناء استعدادها للخروج من غرفة الجلوس:

ـ على فكرة... لقد دعانا آبنر لزيارة منزله مساء السبت. لتبادل الحديث وشرب القهوة. ولقد قبلت الدعوة عنا كلينا وأنا لا أعتقد أنك ستمانعين، لكن إن تساءلت عن سبب قبولي الدعوة رغم علمي بوجود ابنه في المنزل فاعلمك أنني ما وافقت إلا لأنني أعرف أنه حالياً في سفر.

أحست بشعور الراحة يمتزج بخيبة الأمل... بإمكانها أن ترافق والدها بأمان دون حاجة إلى تحضير نفسها للقاء الابن في ذلك المنزل. أجابته بسرور مصطنع:

ـ عظيم. إنه لمن المفيد لك الخروج ساعة أو ساعتين.

وسرّ والدها، فاستقر في كرسيه ورفع الكتاب ليقرأ. بينما توجهت هي إلى المكتب الصغير الواقع في ما بين المطبخ وغرفة الجلوس تبدأ العمل في كتاب والدها.

بعد ظهر الجمعة أعطاها تود مغلفاً فيه راتبها. قال لها ورنة السخرية في صوته:

ـ أما زلت دون خاتم؟

ـ أما أخبرتك عن أن الأمر كان تلفيقاً من قبلي؟

ـ صحيح؟ وماذا بشأن طلب الزواج ذاك؟ أكان تلفيقاً أيضاً؟

وضعت المغلف في حقيبتها:

ـ نعم ولا... لم أشاهد اندي... فهو في هالفيكس... ولا شك في أنك تعرف شؤون أخيك.

ـ لي ولزوجتي حياتنا الخاصة ونحن في الواقع لا نعرف بما يفكر في فعله الأخ الأكبر. هل تعلمين أن زوجتي مسؤولة عن مكتب الشركة الرئيسي؟ وأن ابن عمي دايفد مسؤول عن قطاع السفر والخدمات فيها... وأنا لا أعرف تحركاته كذلك.

ـ لقد قال لنا والدك هذا. آل لوكربي يبقون أعمالهم في يد العائلة دائماً...

ـ أجل هذا ما نفعله وفقاً لتقاليد العديد من العائلات الصغيرة. فما

الخطأ في ذلك؟

ـ لماذا أنت مشاكس مهاجم دائماً سيد لوكربي؟

ـ قد تصبحين زوجة شقيقي، أي شقيقتي قانونياً آنسة ستون. لكنك وقحة بما فيه الكفاية لتتحدثي معي بهذا الأسلوب.

ـ آسفة على وقاحتي سيد لوكربي... لكنني أصر على أنك مخطىء بخصوص الجزء الأول من حديثك.

فضحك بخبث:

ـ صحيح؟ ماذا ستفعلين عوضاً عن ذلك... هل ستعيشين معه دون ارتباط كما تفعل سائر النساء؟

ـ اوه!

صفقت باب المكتب في وجه ضحكته.

يوم السبت مساءً، تناولت وأبيها طعامهما باكراً... وعندما سألته عما إذا كان يريد تغيير ملابسه قال:

ـ هل ستزور ملكاً.

ـ وإن يكن... فلقد مضى عليك زمن ثم تخرج فيه زائراً لذا أظن أن من الأفضل أن ترتدي البذلة التويد التي لم ترتدها منذ اشتريتها.

نظر إلى الخارج فشاهد السماء وقد اكفهرت بالغيوم السوداء، فتنهد:

ـ تكسبين يا عزيزتي. لقد كلفتني البذلة مالاً كثيراً... ومن الأفضل أن أسترد شيئاً منها بارتدائها... مع أن الطقس يبدو كأنه سينقلب إلى طقس عاصف صيفي.

بينما كانت تفتش عن مفاتيح سيارتها، رن جرس الهاتف، فغاص قلبها وتمنت أن لا يكون المتكلم صديقاً يود الإطالة في الحديث... لكنها لم تكن بحاجة لتقلق... فالمتكلم كان سريع الكلام وحازماً:

ـ سأصل إليك بعد عشر دقائق.

ـ اندي؟ لكن... ولكن والدك قال إنك مسافر.

ـ عدت. فهل تزعجك عودتي؟ عشر دقائق... هل يكفي هذا الوقت؟

ـ لا حاجة لأن تأتي... فلدينا كرسي متحرك نبقيه في السيارة. كما يستطيع والدي الوصول إلى السيارة بالعكازات.

لكنه لم يكن يصغي لأنه عاد فكرّر قبل أن يقفل السماعة:

ـ عشر دقائق.

ولم يسرّ والدها بالخبر:

ـ ألم تقولي له اننا لا نحتاج إلى مساعدته؟ يا له من متعجرف يشبه العديد من الشبان أمثاله الذين يرأسون مؤسسات عائلية، يعتادون على تقديم الأوامر ويترقبون الطاعة من الجميع دون نقاش.

حاولت الدفاع عنه بلطف:

ـ لقد قرأت أن الإدارة الحديثة تقوم على هذا النوع من التسلط أو الديكتاتورية بوجود اجتماعات مجلس الإدارة المتواصلة والاضطرار للقبول بآراء جميع من له علاقة بالعمل.

قطع كلامها صوت جرس الباب، فذهبت لتفتح وإذا بها تجد أمامها اندي فقالت بتوتر:

ـ لطف منك أن...

ـ أين والدك؟

ـ في غرفة الجلوس حيث يجلس عادة. امنحني بعض الوقت لأعينه على الخروج من كرسيه والاستناد إلى العكاز...

كانت تتكلم إليه وظهره إليها، وصل إلى غرفة الجلوس ليقول بشكل رسمي:

ـ مساء الخير استاذ ستون.

لهجة أبيها كانت جافة ورسمية وهو يردّ تحيته.

فقالت بروك محاولة كسر الجمود بينهما:

ـ سأحضر سيارتي.

ـ أنتما ذاهبان في سيارتي.

ـ اوه... إذن سأذهب لأحضر الكرسي المتحرك و...

ـ لا لزوم لهذا. فلدينا كرسي لوالدك استعرناه له.

ـ أليس مافعلوه غاية في اللطف يا أبي؟

رد ستانلي، وهو يجر نفسه إلى الأمام بواسطة العكازين:

ـ جداً... أظن أن الفكرة كلها فكرتك؟

ـ بل فكرة والدي.

ـ يا له من رجل متفهم طيب إنه خير رجل.

بعد جهد جهيد دفع نفسه بطيئاً إلى الأمام... وعندما انحنى اندي ليحمل الجسد الصغير النحيل المنحني فوق العكازين بين ذراعيه، شهقت بروك، وصاح ستانلي:

ـ بالله عليك... أنزلني...! لن أسمح لأحد بأن يحملني... وخاصة...

تدخلت بروك للتخفيف من حدة والدها:

ـ أبي... المسافة إلى سيارته قصيرة فهي متوقفة قرب سيارتنا.

أصبحوا خارج المنزل، وكان اندي يسير بخطى ثابتة نحو بوابة الحديقة، أما بروك فأسرعت لتفتح الباب... وعندما أنزل اندي والدها إلى المقعد الخلفي بكل لطف ورقة... جلست إلى جانبه.

ـ هل أنت مستريح في مكانك استاذ ستون؟

أجاب وكأنه يكافح مشاعره ليكون مسروراً:

ـ أجل... شكراً لك.

كان آبنر لوكربي ينتظر عند باب منزله، يفرك يديه بعصبية. ويراقب ابنه وهو يحمل حمله الرافض المسافة الصغيرة الفاصلة ما بين السيارة والباب... تبعتهم بروك، وما أن دخلوا حتى أدار آبنر الكرسي المتحرك ليكون في مواجهة ولده وحمله. قال:

ـ ضع صديقي ستانلي هنا يا بني.

أمسك بيد صديقه وأخذ يهزها.

ـ عظيم... أنت لا تعلم كم كنت أترقب وصولك.

رد الاستاذ، ووجه محمّر من تتالي الأحداث:

ـ وأنا كذلك يا آبنر.

أمسك آبنر بالكرسي محاولاً جرّه، لكن ولده نهاه وقام عنه بالمهمة... فقال الأب:

ـ حسناً... ما رأيك بمنزل العائلة يا ستانلي؟

أجاب الاستاذ:

ـ إذا كان بالإمكان الحكم على الداخل من رؤية الخارج فأظن أن المنزل رائع... متى بني المنزل يا آبنر. لأنني وجدت صعوبة في تحديد العصر من الرؤية الخارجية.

ـ منذ قرنين تقريباً. لكن أضيفت إلى المنزل بعض الإضافات والاصلاحات.

ـ هذه الغرفة... إنها رائعة، فيها ذوق رفيع بكل ما للكلمة من معنى، لو شاهدتها المرحومة زوجتي لأعجبتها. أليس كذلك يا بروك؟

هزت بروك رأسها موافقة، فبوجود اندي إلى جانبها أحست بأن لسانها معقود... مع أنه ما كان ينظر إليها منذ أن رآها هذه الليلة.

وقال آبنر:

ـ والآن... ماذا ترغبون... ستانلي؟ آنسة ستون... أم هل تسمحين لي بمناداتك بروك؟

ـ أرجوك نادني باسمي الأول سيد لوكربي.

قال الضيوف ما يرغبون في شربه فسارع اندي للقول:

ـ دع لي شرف تقديم الشراب بنفسي يا والدي... بروك... اجلسي في مكان ما.

لكنها بقيت واقفة... لن تتلقى منه الأوامر، فهي ضيفة. واستقر

العجوزان معاً براحة... وعاد اندي يحمل صينية الشراب وقال لبروك بصوت هامس:

ـ قلت لك اجلسي... لك كل الحق.

فانفجرت شفتاها بشهقة مكبوتة:

ـ عمَّ تتحدث؟

فقال آبنر لوكربي ممازحاً:

ـ والآن يا بني... إذا كنت ترغب في همس كلمات حلوة في اذني بروك...

سارعت بروك تقول:

ـ كان يطلب مني الجلوس سيد لوكربي... في الواقع... كان... يأمرني...

ضحك آبنر ملء فيه.

ـ انه مرعب عندما يطلب من الناس شيئاً وقد امتلك هذه النزعة منذ أن كان يافعاً. كنت ووالدته على يقين من أنه سيحتل مكاني وكانت أمه تقول لي: إنه له تصميمك وعزمك إضافة إلى أشياء أخرى لا تملكها أنت كالجمال مثلاً وكنت أرد عليها، بأنها كانت تعتبرني يوماً وسيماً! فهل تظنين أن ولدي بهي الطلعة حقاً يا بروك؟

صدمها هذا السؤال المباشر فنظرت للمرة الأولى هذه الليلة إلى الابن مباشرة. ماذا بإمكانها أن تقول؟ أتخبره أنها تجده أكثر الرجال جاذبية وأنه أوسم رجل رأته في حياتها؟ وأنها تتمنى لو كان قد طلب يدها حقيقة؟ وأنها تحبه... نعم تحبه.

أطلت السخرية من عينيه... لا يعقل أن يكون قد قرأ أفكارها؟ كان على وجهه شبه ابتسامة وتعبير ساخر. أيسخر منها؟ لماذا؟ ألم يسأمها لأنها قالت له إنها لا تثق بإخلاصه لها؟

قال اندي:

ـ لقد تأخرت في قول ما في ذهنها... لا شك في أنها الآن تبحث عن كلمات مؤدبة لتخبرك أنني قبيح كالخطيئة نفسها.

اصطبغ وجهها بحمرة الخجل فاندفعت الكلمات منها اندفاعاً بشكل تلقائي:

ـ لا... لا... لن أقول شيئاً كهذا بل سأقول إنني أجدك جذّاباً بل جذاباً جداً.

كانت ابتسامة ستانلي ستون قصيرة ولا تدل على شيء. لعله سامح مالك شركة لوكربي، لكنه لم يزل يحمل لابنه في قلبه حقداً. يا ترى ألأنه المسؤول عن الشركة؟

ضحك آبنر عالياً على قول بروك. أما اندي فقال وعيناه لا تفارقان عينيها:

ـ إنّ الإطراء لمتبادل.

سأل ستانلي وكأنه ممتعض من تقدير ابنته للرجل الذي يكرهه:

ـ وماذا عن ولدك الآخر يا آبنر؟

ـ آه... تود إنه أصغر من بروك. شاب طيب، ولكنه أقل لمعاناً هنا...

ضرب باصبع على رأسه، وأكمل:

ـ ... وهو يغار من شقيقه الأكبر. منذ زمن بعيد، تود يحب أن يكون له عقل اندي وأسلوبه في معاملة الفتيات.

سارعت بروك تقول عابسة:

ـ ولكنه متزوج سيد لوكربي... لقد ذكرني أن زوجته تدير المكتب الرئيسي.

وحك آبنر ذقنه:

ـ آه أجل... إنها فتاة لطيفة، ولكن لا شيء خاص فيها... إن ذكاءها ورجاحة عقلها يعوضان عمّا تفتقده من جمال.

استرخى اندي في مقعده وقد مد ساقيه أمامه، ثم قال مبتسماً:

ـ أرأيت يا بروك لم يمنح والدي أهمية لقوة العقل.

صاح لوكربي الكبير:

ـ بالطبع امنحه. ولهذا جعلتك تحصل على أفضل ثقافة يا بني...

التفت لستانلي مكملاً:

ـ لقد ترقى سلم العلم، وتخرج بدرجة شرف، ثم وضعته في مؤسسة العائلة ليبدأ منذ نعومة أظفاره.

ـ حرفياً... لقد أمسكني كتاب تعليمات، ومفتاحاً ثم دفعني تحت كل الشاحنات التي في المصلحة.

قال الوالد مبتسماً بفخر:

ـ وهل عارض؟... لقد مر بكل هذا بنجاح.

التفت إلى ستانلي:

ـ ليست ابنتك غبية يا ستانلي.

فقال اندي:

ـ أوافقك رأيك.

رفع كأسه إلى فمه وهو يراقبها فسألته:

ـ ماذا تعني بقولك هذا؟

فقال والدها:

ـ إنهما يعنيان أنك ذكية يا عزيزتي... كان أسفي الوحيد يا آبنر لأنها لم ترث حبي لعلم الآثار. إنها ذكية شديدة الملاحظة كانت لتتفوق في هذا المجال لو ولجته وهي إلى ذلك صبورة فلولا صبرها لما استطاعت التعامل معي، ذلك أنني منذ الحادثة ما عدت ذاك الرجل...

توقف عن الكلام وكأنما تذكر أين هو، ومن هما مضيفاه، ماذا فعلا به عبر إحدى شاحناتهم. وقف اندي، أنيقاً في قميص حريري عليه ربطة عنق مماثلة تتناسق مع ثيابه التي هي مزيج من الأزرق والرمادي ليقول:

ـ بروك الحدائق مكان رائع الجمال في مثل هذا الوقت من السنة.

كان تلميحاً أوضح من أن تستطيع تجاهله. فقال آبنر:

ـ هذا صحيح يا اندي... اصطحب بروك لتنشق الهواء النقي العليل. أمّا نحن الشابين فسنبقى هنا لنسترجع أيامنا الخوالي.

ضحك لنكته... فنظرت بروك إلى والدها وكأنها تطلب منه الإذن، لكنها في الحقيقة أرادت كشف مشاعره. فهز رأسه قليلاً، ففي هذه الظروف لن يستطيع إلا الموافقة.

كانت الحديقة فعلاً خلاّبة جميلة واسعة الأرجاء فيها مرجة تحدّها أحواض الزهور المشرقة الألوان، وأشجار تقف في صف طويل تحدد حدود الأرض وفي نهاية الحديقة، تقع شجرة توت ضخمة تمتد أغصانها فوق المرجة، توقف عندها ليواجه بروك، التي امتدحت العبير العابق المنبعث من الأزهار. أما هو فبقي مشغول البال.

وأخيراً تحدث فصدمتها كلماته حتى كادت تنسى ما يحيط بهما من سحر. قال وصوته يحجب تغريد العصافير وصوت الفراغ:

ـ قيل لي اننا مخطوبان.

فخفق قلبها:

ـ من قال لك هذا؟

ـ الرجل الذي أخبرته أنت... أخي

شرعت في الاحتجاج ولكنها عادت فهزت كتفيها.

ـ لقد قلت لتود انك طلبت يدي وهو أمر أقدمت عليه فعلاً إنما بطريقة غير مباشرة. ولا يمكنك إنكار هذا... أنا قلت له هذا بسبب...

توقفت وهي لا تعلم كيف السبيل إلى تبرير الأمر.

ـ أرجوك اكملي...

تنهدت تنهيدة قصيرة غاضبة... لقد ارتكبت خطأ.

ـ آه... كل ما في الأمر أنني أحسست بحاجة إلى الانتقام منك... من فرد من أفراد آل لوكربي وكان تود شريراً... إذ راح يغمز ويلمز. وكنت

قد أبلغتني لتوك أنكم استغنيتم عن خدماتي.

ـ هل كدّرك هذا؟

لو ذكرت له عمق تكدرها يومذاك دون أن تذكر الغيرة التي نهشت قلبها عند رؤيته برفقة تلك الأنثى الفاتنة لضحك وأشفق عليها، ولهنأ نفسه على انتصار آخر. لذا لاذت بالصمت... فسألها:

ـ ما هي التلميحات التي قام بها تود؟

ـ لقد لمّح أنك التقطني من الطريق، وهذا صحيح لكنه كان يعنيه بشكل آخر.

ـ أعرف ماذا عنى... أنه عنى أنك كنت واقفة على جانب الطريق تعرضين... خدماتك.

ـ وهذا ما فكرت فيه أنت أصلاً... أليس كذلك؟

ومد يده ليرفع ذقنها... وفي العتمة التي تلف المكان دنا منها، وضمها إلى ذراعيه ثم راح يمرر يديه على كتفيها وظهرها إلى أن وجدت نفسها تزداد به التصاقاً... ترد له عناقه وكأنها تقوم بذلك غريزياً ولا إرادياً لتستكين إليه. أحست بقساوة ذراعيه توشك على أن تسحقها. في هذه اللحظات كان من المستحيل اخفاء سعادتها التي قررت أن تكون حيث تنتمي مشاعرها.

ودت في تلك اللحظات لو أن الضوء يعينها على رؤية عينيه لترى ما إذا كان تجاوبها قد أسعده أم لا. ولم تمضِ إلا لحظات حتى جاءها الرد:

ـ نحن خطيبان... أتفهمين؟

فردت بهدوء:

ـ لا... لا أفهم.

ـ اتصل بي تود إلى المكتب في هالفيكس ليهنئني، وفي اعتقاده أنه يغيظني بتوريطي مع امرأة. لكنني شكرت له لطفه لأنه جعلني أعلم حقيقة مشاعر الفتاة التي أرغب في الزواج منها.

اشتدت ذراعاه حولها، لكنها تراجعت.

ـ أنت لا تعرف حقيقة مشاعري نحوك... لقد قلت لتود ان الأمر غير صحيح.

ـ ما هو غير الصحيح؟

ـ إنك طلبت يدي، أعلم أنك ذكرت الزواج، ولكن بطريقة المزاح. وتجربة كما سميتها... مع أنك لم تشرح لي ما كنت تجرّب.

أحست بأنفاسه حارة على وجهها:

ـ اجرب ردة فعلك... قولي شيئاً. يا فتاتي الوضّاءة العينين... هل تحبيني؟

ـ أجل... ولكن...

شهقت مذعورة... لقد اعترفت بحبه الذي لم تع بعد أنها تحس به... ومع ذلك فهو هناك. وبما أنها الآن قد اعترفت بَه فقد علمت أنه كان حقيقياً، تفاعل في نفسها منذ وقت بعيد، منذ أن التقيا بل ربما منذ اللحظة التي سخرت منها هاتان العينان وهما تمران بها على الطريق العام...

ـ من دون «ولكن» يا حبي، أنت لي... وستتزوجينني.

فحاولت التخص منه دون جدوى وقالت:

ـ أنت تستعجل الأمور أنسيت سيلينا المرأة التي اصطحبتها إلى الكاراج. إنها فتاتك... كما قال لي تود، والدها صاحب مصرف، غارق في المال حتى أذنيه.

تابعت المقاومة... وتابع هو الإمساك بها بقيد من فولاذ، أردفت:

ـ ألا تسعى وراء المال؟ شركة لوكربي قد تكون مزدهرة ولكن الجميع يعلم ماذا يحدث للمؤسسات العائلية... التي قد تفسد... أو تفلس.

فصرّ على أسنانه وقال:

ـ سأقفل لك فمك إن بقيت تتكلمين حتى منتصف الليل!

هذا ما فعله، لكن عناقه الآن لم يكن للمتعة بل لتعذيبها. كان عقاباً على ما تفوهت به شفتاها.

بعد أن رفع رأسه عنها قالت محتجة:

ـ هذا ليس عدلاً... ما قلته صحيح... لقد ألمح تود...

ـ تود يلمح إلى كثير من الأشياء... إنها طريقته في الانتقام مني... فالحب الأخوي مفقود بيننا.

ـ حسناً... ثمة شيء آخر قلته لي أنت يوماً لن تقدر على إنكاره. أتذكر يوم خرجنا معاً للمرة الأولى، في ذاك الوقت قلت إنك ستكون لي إذا قلت أنا الكلمة... وكنت تمزح بالطبع... وأنا قلت لك انني إذا أردت الزواج، فأريد رجلاً مخلصاً.

ـ سأكون مخلصاً يا حبيبتي... أُقسم أنني سأكون مخلصاً لأنه عندما يجد الرجل المرأة التي يبحث عنها لا يتركها أو يتخلى عنها أبداً فهل تتزوجينني؟

سمعت في رأسها أغنية أصّمت أذنيها بحلاوتها فهمست:

ـ نعم، نعم، نعم... فلا شيء يمنعني.

ـ ولا والدك؟

ردت بصوت منخفض غير واثق:

ـ لست أدري.

أمسك بوجهها بين يديه:

ـ فلندخل ولنرَ ما سيكون عليه رأيك؟

ويداً بيد دخلا غرفة الجلوس... ورفع آبنر نظراته إليهما، مليئة بالأمل والانتظار، فقد قال لها اندي إنه يعرف بأمرهما. رفع ستانلي ستون نظرة كان فيها دهشة تحولت إلى عدم التصديق فكان أن تراجعت هي مذعورة نوعاً ما.

ـ بروك؟

نطق اسمها بحدّة وكأنه يؤنبها تأنيباً قاسياً، ذكّرها بطفولتها عندما كانت ترتكب ما لا يرضي الرجل المتحفظ، اندي عدوه... فهل أصبح أنا عدوة له بعد أن يعرف بأمرنا؟ أفزعتها الفكرة، فتركت يد اندي... لكنه شد عليها

وقال:

ـ استاذ ستون. هل لي أن أطلب إذناً بالزواج من ابنتك؟

هب آبنر عن الكرسي، ليربت ظهر ولده بكل فخر وحنان أبوي:

ـ أنت شاب طيب يا اندي... فليس هناك اليوم شبان يطلبون الاذن من آباء فتياتهم للزواج... أليس كذلك يا ستانلي؟

راحت عينا الاستاذ تنتقلان من الأب إلى الابن، وأخيراً إلى وجه ابنته... لقد علق في الفخ... في الغرفة الآن ثلاثة أزواج من العيون تحملق فيه. سعت عيناه إلى عيني ابنته فسألها: «أترغبين في الزواج من هذا الرجل؟» أحست بجفاف شفتيها فحاولت ترطيبهما بلسان أشد جفافا.

ـ أبي... أنا...

أحس اندي بعدم قدرتها على مواجهة الموقف، فاشتدت قبضته على أنامله تشجيعاً، فهمست أخيراً:

ـ نعم يا أبي... أريده.

٨ ـ ساد الصمت

الرجل الذي كانوا يحملقون فيه ابتسم ابتسامة ضعيفة، ولم يلبث أن مد يداً مرتجفة إلى ابنته... ولكن عينيه كانتا كعيني رجل تلقى ضربة مميتة!

لم يشاهد آبنر سوى الابتسامة، والمصافحة... واليد التي ترتجف، ربما ظنها ترتجف من الفرح. انحنت بروك لتقبل خد والدها وهمست:

ـ إنني أحبه يا أبي... لقد وقعت في حبه.

تقدم اندي، وأخذ يد ستانلي ستون، وقال بكل بساطة:

ـ شكراً لك.

هز ستانلي رأسه، ثم طفقت ابتسامته تزداد اتساعاً وقبضته تشتد اثناء مصافحته الشاب... وقال:

ـ أرجو أن تقدرها حق قدرها.

علم اندي، كما علم والده أيضاً، أن ستانلي ستون قد خاض معركة وانتصر... انتصر كي يحرر نفسه من كراهيته المتجذرة في نفسه ضد عائلة لوكربي... تعالى الضحك وتبودلت التهاني وفي كل هذا كانت بروك تحاول اخفاء ارتباكها من تطور الأحداث، من الصداقة الجديدة العلاقة الأمتن بين العجوزين. بقيت بروك تتساءل متى ستستفيق من هذا الحلم.

فيما بعد، وخلال تناولهم القهوة سأل آبنر:

ـ هل أخبرت بروك عن أمر غياب دايفد وحاجتنا إليها لتحل مكانه يا اندي؟

www.elromancia.com

نظرا إلى بعضهما بعضاً ورفع اندي حاجبيه:

ـ هل ذكرت لك هذا يا بروك؟... دعني أتذكر... ماذا كان ردك؟

ـ أنت تعرفه جيداً.

فقال والده:

ـ دعك من المزاح يا ولد، هل كان ردها نعم أم لا؟

ردت بروك محرجة:

ـ لقد قلت لا سيد لوكربي، لكن... أترى، لم أكن أريد الابتعاد عن المنزل ساعات طويلة.

فقال آبنر:

ـ كنت تفكرين في والدك... إنها لابنة طيبة... أتمنى لو تصبح ابنة طيبة لي أيضاً.

ضرب ركبته بكفه الضخم وضحك:

ـ لن يمضي وقت طويل قبل أن يصبح لك والدان تهتمين بهما.

ضحك ستانلي وقد أعجبته الفكرة... وهذا ما حيّر بروك... إذا كان قد سامح الشركة فلماذا لا يسامح الابن؟

قال ستانلي لابنته:

ـ ساعديهما في المكتب يا بروك، لن أمانع... فالسيدة والسيد هاملتون لن يعترضا على مساعدتي قليلاً، فهما لا يقومان بهذا مجاناً... وهما سعيدان بالمبلغ الصغير الذي يتقاضيانه مني.

سألها اندي:

ـ وما ردك الآن؟ هل نبقى العمل في يد العائلة كما تقتضي التقاليد؟

ـ فليكن ضمن العائلة، فأنا أعرف الآن أن أبي لا يعترض.

قال آبنر:

ـ عظيم... العمل سيكون في قسم النقل وحركة السير... قد يبدو العمل معقداً في البداية. ولكن دايفد بارع في الشرح... الراتب المعتاد يا اندي... هه؟

ـ حسناً... فليكن أكثر قليلاً... على كل إنها مخلوقة خاصة... صحيح أنها مساعدة جيدة لكنها ستصبح زوجة «الرئيس».

نظرت بروك إلى والدها، فوجدته يبتسم. استدار آبنر إليه:

ـ كنت أفكر يا ستانلي أنت تؤلف كتاباً وبروك واندي قد أصبحا خطيبين وهذا يعني أنهما بحاجة إلى الانفراد في الأمسيات لذا فكرت في أن أعرفك إلى امرأة تعيش في البلدة وهي طابعة ممتازة عملت عند المحامي المحلي، وقد تركت عملها لترعى أمها العجوز المريضة التي ماتت بعد فترة وجيزة من العمر. وهذه السيدة متضايقة من قلة العمل... هذا ما قالته لي عندما التقيتها في مكتب البريد، إنها أرملة في العقد الخامس من عمرها مثلك تماماً يا ستانلي.

ـ تقريباً.

ـ هل توافق على قدومها لمساعدتك فهي معتادة على مساعدة المقعدين.

أجفلت بروك منتظرة ردّ والدها، لكنه لم يظهر ممانعة لما قاله صديقه... يبدو وكأنه يتقبل وضعه أخيراً. سأل ستانلي:

ـ وما اسمها؟

ـ اسمها مارغريت ويتشفيلد. تسكن في بيت يبعد نصف ميل عن القرية، وهي تستخدم دراجة في تجوالها.

فقالت بروك:

ـ أظنني رأيتها في السوق فهي تلوح لي كلما تجاوزتها بالسيارة.

فقال آبنر بسعادة:

ـ هذه هي السيدة. وأنا واثق أنها ستعجبك. سأذهب وأراها طالباً منها الاتصال بك... هل تعجبك الفكرة.

فضحك ستانلي:

ـ ألست تضغط علي يا آبنر؟

ـ ليس كثيراً. فلوالدي شخصية قوية... هيا بنا يا حبي تعالي لأريك جناحي ودعي هذين العجوزين يدبران شؤون حياتهما.

وصلا إلى جناحه فدخلا أولاً غرفة الجلوس العصرية التي حافظت على شيء من جو الماضي فتحولت المدفأة فيها إلى كهف عريض وضع فيه جهاز تلفزيون وتحفاً صغيرة. أما الأرض فكانت مكسوة بسجادة لها ألوان الحريق والأرائك في الغرفة مغطاة بقماش مخملي ذهبي قربها طاولة مستديرة منخفضة يظهر بوضوح أنها من الأثريات الثمينة. فسألها:

ـ هل أعجبتك؟

انتقلا منها إلى الردهة حيث طلب منها أن تتبعه فلما وصلا إلى غرفة فتح الباب قائلاً:

ـ في هذه الغرفة أنام وإليها ستنضمين بعد أيام قليلة.

دنت من النافذة في محاولة منها إلى اخفاء ارتباكها ولم تلبث أن استدارت لتتكىء إلى النافذة متأملة ما تحويه.

تذكرت غرفة نومها البسيطة وتنهدت، اقترب منها:

ـ لم الحزن يا حبي؟ قريباً سيكون كل هذا لك.

وببطء استدارت بين يديه لتنظر من النافذة:

ـ لست واثقة يا اندي... أنا قلقة مما قد يحدث لوالدي في المستقبل. لا استطيع تركه وحده يواجه...

أدارها نحوه ووضع يده على فمها:

ـ والدي لديه فكرة ما ولا شك في أنه يناقشه بها الآن... سيقنعه بالمجيء للإقامة هنا ليشاركه في السكن. وأنا على يقين من أنه سيكون خير رفيق لوالدي، والعكس صحيح، هذا دون أن نذكر أن المكان هنا مريح أكثر من منزلكم الصغير.

ـ ما زلت حائرة يا اندي.

ـ هل تعارضين سكن والدك هنا؟

ـ لا... أبداً. وكيف أعترض؟ ولكن... كل شيء يحدث بسرعة. وأنا أذكر كل الأشياء التي قالها والدي عن عائلة لوكربي، وكيف كان يحقد على الشركة التي فعلت هذا به... ومع ذلك فها أنا خطية لك... وها أنت

تقترح بكل هدوء أن يجيء الرجل الذي سلبتموه الكثير إلى هنا ويعيش معكم... ليعيش مع عائلة لوكربي... أنت لا تعرف ماذا تطلب يا اندي.

ـ بل أعرف تماماً ما أطلب... أنا أطلب من فتاة جميلة اسمها بروك ستون أن تشاركني حياتي، وفراشي... وأن تتزوجني!

صدمتها الفكرة، فشهقت:

ـ وأن أحمل اسمك!

فأبعدها اندي عنه غاضباً فقالت تدافع عن نفسها:

ـ أنت لا تفهم يا اندي... منذ سنة ونصف وأنا لا أسمع إلا اللعنات تنصب على اسم لوكربي من فم والدي... وها أنا اليوم يُطلب مني الاعتياد على استخدام هذا الاسم خاصاً بي.

فقال اندي بمرارة:

ـ لقد اعترفت أنك تحبينني... فهل هذا ما تدعينه حباً؟

قالت بأسى بصوت أجش:

ـ اندي... اوه اندي... اجعلني اصدق أن مخاوفي لا أساس لها من الصحة قم بشيء ما... أي شيء...

اشتعلت النار في عينيه:

ـ لن أحتاج إلى تشجيع أكثر من هذا.

امتدت يداه إلى خصرها ليرفعها إلى السرير. شعر بجسدها يهوي إليه وإذ به يرفع قدميها ليمدّهما على هذا السرير ثم تمدّد هو قربها.

تسللت يداه إليها تدنيانها منه، ثم راحت أنامله تمرّ على طول عمودها الفقري لتدفعاها إلى الاقتراب منه أكثر فأكثر. أما يداها فأمسكتا كتفيه أما أناملها فضغطت بإلحاح على عضلاته القوية، حتى شعرت بقساوة جسده تحت ملمسها. عندما أصبحت مداعبة حميمة أكثر فأكثر، تلاشى توترها وتلامس جسداهما في عناق قوي... جعلها تشعر بصدرها ينسحق فوق صدره... وأبعدها عنه ليقول بخشونة:

ـ احبك يا امرأة... امنحيني، امنحيني... أين تلك الفتاة الدافئة التي عانقتني في الحديقة؟

هزها بقوة، ثم غطاها بذراعيه، ليشعل فيها كل مشاعر الرغبة. أخذت نبضاتها تتصاعد رويداً رويداً حتى أوصلتها إلى حدود الرجفة.

تراخى عنها قليلاً، وعيناه المبتسمتان تبرقان. قال:

ـ لماذا هذا الجمود يا حبي؟ هل خاب أملك لأنني لم استجب لك؟

عاد إليها توترها بعد أن أحست بالسخرية في كلامه، فامتقع وجهها لا من عناقه كما كان منذ قليل بل من الغضب:

ـ أية استجابة؟... إذا كان بدر مني شيء يدل على التشجيع فذلك وليد حرارة اللحظة ذاتها... فلم أكن أعني شيئاً.

ابتعدت عنه وكأنها لا تطيق قربه.

امتدت يده لتعيدها بخشونة إليه:

ـ بل كنت تعنين كل شيء... أنت لي... أتسمعين؟

أمسك يدها اليسرى.

ـ قريباً ستضعين في هذه خاتمي... وستصبحين زوجتي... امرأتي...

ـ المرأة الثانية بعد سيلينا التي تملك المال والمكانة الاجتماعية التي تحتاجها لأعمال عائلتك.

أمسك بيدها ليلويها وراء ظهرها.

ـ أيتها...

فصرخت من الألم:

ـ دعني أذهب! أكرهك!

عاد إلى معانقتها من جديد مجبراً إياها على الخضوع، ساحقاً بهمجية كل مقاومتها، عندما تصاعدت حرارة عناقه، خفت قبضة ذراعه عنها ثم أمسكت يده الحرة، تحت نشوة عناقه خصرها فاستجابت له كل الاستجابة.

أخيراً ابتعد عنها ثم مد قدميه إلى الأرض ووقف وهو يضع يديه على خصرها، تنفس بانتظام وعمق ثم ابتسم:

ـ أصحيح أنك تكرهينني؟

ـ وكيف أكرهك وأنا أحبك؟

بدا عليه وكأنه ربح معركته. سار نحو المرآة والتقط فرشاة شعر ليمشط شعره المشعث... ثم تقدم منها ومد يده:

ـ تعالي يا حلوتي... فأنت تغريتني باستلقائك هناك أكثر مما تتصورين.

ضحك عندما رأى انزعاجها الظاهر على وجهها الممزوج بكبرياء، وقالت:

ـ أنا لم أسع وراء رجل قط، ولم أرجُ أي رجل قط، ولن أفعل.

رد بصوت خفيض:

ـ صحيح؟ إذن يوماً ما ستكتشفين العكس... لأنني سأجعلك تحبينني ثم أتركك، لتأتي إليَّ جائية متوسلة راجية أن...

رفعت يديها لتغطي اذنيها، فضحك ونظرت إلى المرآة وشهقت من منظرها المشعث. وسألته بخجل:

ـ ألديك مشط يا اندي؟

فتح درجاً أخرج منه مشطاً كبيراً زهري اللون وقال بسخرية:

ـ اللون الزهري للفتيات. وأنا احتفظ به خصيصاً للنساء اللواتي أدعوهن إلى غرفة نومي.

أخذته بروك ثم شرعت تتفحصه فتابع ساخراً:

ـ هل تفتشين فيه عن شعر بني طويل هو لسلينا؟ لن تجدي شيئاً، فمدبرة المنزل تغسله بانتظام. لذلك يبقى دائماً جاهزاً للمرأة التالية.

فرفعت رأسها بحدة:

ـ أنت إذن تعني ما تقول... أنت تستقبل النساء هنا.

ـ قوليها في صيغة الماضي يا حبي... لقد قلت لك أنا لست مراهقاً لا

www.elromancia.com

تجارب له.

- وهذا يعني أن سيلينا إحدى نسائك؟

- إذا كانت الغيرة تعني أنك تحبينني حقاً... فلا بأس بقليل منها. اعلمي أن كل ما حدث في حياتي قبل لقائنا لا شأن لك به.

- قبل لقائنا؟ ولكنها كانت معك منذ يومين في محطة الوقود.

تناول منها المشط ليضعه في شعرها، ويسحبه حتى وصل إلى أولى تموجاته، فألمها:

- توقف... أرجوك توقف!

- لن أتوقف حتى تعتذري.

- أنا آسفة لكنني لا أعرف على ماذا.

فأرجع المشط، وأخذ يراقبها وهي ترتب شعرها، قالت:

- أحتاج إلى بعض «البودرة».

- لا استطيع توفير هذا لك.

- لم أكن أتوقع منك... فكلك رجولة...

ابتسمت له ابتسامة تعمدت أن تكون مثيرة، فسارع إليها، لكنها راوغته وفتحت الباب مسرعة إلى الطابق الأرضي... فأسرع إليها ليلف يده على خصرها.

- ستدفعين الثمن... يوماً ما... عندما تصبحين تحت رحمتي.

فأسكتته باصبعها.

اثناء دخولهما إلى غرفة الجلوس قال لهما آبنر:

- وافق ستانلي على السكن هنا عندما تتزوجان.

التفت ذراعا بروك حول عنق أبيها:

- هل أنت متأكد؟ ألن تشتاق إلى منزلك؟

- قد أشتاق إليه، ولكن هذا أفضل من العيش هناك في وحدة أمقتها... آه لو استطيع السير...

تلاشى صوته عند ذكر الموضوع المحرّم فقاطعه آبنر:

- لن تشتاق إليه يا صديقي فالمكان هنا هادىء ساكن، سترافقك فيه السيدة مارغريت ويتشفيلد التي وافقت على العمل في طباعة كتابك بسرور وقد وعدت بعد أن اتصلت بها هاتفياً بزيارة والدك يوم الاثنين يا بروك أي في اليوم الذي ستستلمين فيه العمل في قسم النقليات... هل عملت ما هو صح يا اندي؟

- سأعود إلى مكتب هالفيكس يوم الاثنين.

بدت خيبة الأمل على بروك:

- سريعاً هكذا.

التفت ذراعه حولها:

- آسف يا حبي... ما كان يجب أن أعود إلى هنا قبل منتصف الاسبوع المقبل. لأنني وسط مفاوضات دقيقة... لقد عدت فقط لأطلب يدك وهذا العمل أكثر المفاوضات دقة وأعظمها كسباً لي.

عمَّ الضحك الغرفة وكان آبنر أول الضاحكين إذ ردَّ رأسه إلى الوراء مستمتعاً بهذه النكتة.

عندما وصل اندي بعد ظهر اليوم التالي لزيارتها. كان الطقس حاراً... قبل أن يخرجا، جرَّ اندي كرسي الاستاذ إلى الحديقة وقال ستانلي أن بإمكانه مناداة الجيران إذا أراد العودة إلى المنزل وبناءً على ذلك تركاه.

اثناء الطريق سألته:

- إلى أين؟

- إلى تورنتو... ثم إلى منطقة البحيرات.

- ليتك أخبرتني سابقاً لأنني كنت سأنتعل حذاءً آخر غير هذا الذي لا يصلح للسير.

- لن نبتعد كثيراً، لأنني لا أريد السير كثيراً بل أريد أن أكون مع خطيبتي على انفراد في مكان خاص أتمتع فيه بالكثير من الحب...

www.elromancia.com

- قبلة قبلتان ستكفيانك حتى موعد سفرك.
- يوم الخميس بعيد ولن تكفيني قبلتين.
أوقف السيارة أمام مجمع تجاري.
- فلندخل إلى هنا.
- متظاهرين بأننا سواح؟
- ولماذا لا... لقد مضى سنوات منذ أن جئت إلى مكان كهذا.

دخلا محلاً فيه قطع أثرية وحلي فضية وذهبية ذات أحجار كريمة متعددة الألوان وهي قطع نادرة فمن المعروف أن منطقة تورنتو هي المصدر الرئيسي لمثل هذه الأنواع من الحجارة. والكهوف التي فيها هذه الأحجار الكريمة اكتشفها السكان الأصليون.

قال لها اندي:
- اختاري خاتماً... ليكون مؤقتاً خاتم خطوبة، حتى نجد وقتاً لنشتري خاتماً أصيلاً.
- اختاره من فضة؟
- بل من ذهب...

تأمل الخواتم فأعجبه منها خاتماً تناوله من علبته ثم وضعه في اصبعها.
- إنه واسع قليلاً.

أعطته البائعة خاتماً مشابهاً أصغر منه قليلاً، يلمع فيه الذهب الذي يحمل حجراً بسيط التصميم. وضعه اندي في يدها فوجده مناسباً تماماً.
- وقلادة أيضاً... من الذهب.

فسارعت بروك إلى القول:
- لكن اندي، هذا كثير!
- أنا أفضل حكم على هذا.

فردت مداعبة لتغيظه:
- هل تعرض ثراءك أمام الناس؟

فرد بجفاء:
- سأحاسبك فيما بعد.

ضحكت البائعة، ثم اختارت قلادة تناسب الخاتم. خرجا والخاتم في يدها والقلادة في علبة وضعها اندي في جيبه. وعادا إلى السيارة لينطلقا إلى منطقة البحيرات.

أوقف اندي السيارة بين الشجيرات في مكان مخصص للوقوف والتخييم. ونزلا منها، ليسيران متكاتفين إلى مكان بعيد عن الطريق... وعن الأنظار. خلع سترته ومدها فوق العشب... فجلست بروك عليها، ضامة ركبتيها إلى جسدها، لافّة ذراعيها حول ساقيها. شعرت بالسعادة لأنها ارتدت هذا الجينز وهذا القميص القصير الكمين. أخرج اندي من جيبه العلبة التي تحوي القلادة، ثم دنا منها فأدارت له ظهرها فرفع لها شعرها الأشقر وأقفل القلادة حول رقبتها، ترك لأصابعه حريتها في التنقل على عنقها الغض مسبباً لها ارتجافاً وصل إليها تدريجياً وملك عليها عواطفها فكان أن ارتدت إلى الخلف تسند ظهرها ورأسها إلى صدره الرحب.

همست له باسمه، فتحركت الذراعان القادرتان على إدارة مقود شاحنة عملاقة لتلتفا بنعومة حولها. وتأوهت، ثم مدّت يديها إلى الوراء لتلفهما من خلف رأسها حول عنقه، تاركة نفسها تتمتع بمداعباته.

ثم لم تجد نفسها إلا قد ارتدّت إلى الوراء، تستلقي فوق العشب حيث امتزج جسداهما وراحت شفاههما تتمتعان بأسماء بعضهما بعضاً مراراً ومراراً وهما يتأوهان سعادة. فجأة أحست بقساوة الأرض تحتها، وبالفضاء المفتوح حولهما، وبأصوات الضحكات الآتية من بعيد... فقالت:
- لا يا حبيبي ليس الآن... لا نستطيع فعل هذا... لا يجب...
- أنت لي وأنا أحبك. وأنت زوجتي فلماذا لا؟

انه لا يعي ما يقول...
- انتظر إلى أن تصبح زوجي يا اندي...

ـ نحن لسنا بحاجة إلى الانتظار.

شفتاه الجائعتان ألهبتا كيانها. لكنها مع ذلك أصرت على إبعاده عنها فلما أحسّ بما تفكر فيه رفع رأسه وقال لها:

ـ سأشفق عليك هذه المرة فقط. فمعك الحق، هذا ليس المكان أو الزمان المناسبين لكن حذار... أنا لست رجلاً صبوراً وما أريده آخذه... وأنا أريدك.

تركيزه على الكلمات الأخيرة جعلت القشعريرة تعاودها، فمدت يديها تحيطه وتضمه إليها... فضحك:

ـ تريديني حيناً وترفضيني حيناً آخر.

رفع نفسه عنها ليقف بعد ذلك ومد يده إليها ليمسكها ثم أخذ ينظف بنطلونها وقميصها من قطع الأعشاب والأغصان.

اثناء العودة إلى المنزل قال لها:

ـ غداً صباحاً... ستذهبين لمقابلة دايفد... فهو المسؤول عن قسم النقل.

ـ وهل هو من عائلة لوكربي؟

ـ أجل... هيا قولي ما تشائين عن ابقاء العمل ضمن العائلة.

فهزت رأسها مبتسمة وتابع:

ـ انه ابن أخ والدي، أي ابن عمي الحقيقي... هو اصغر مني ببضع سنوات. ويحمل رخصة قيادة شاحنات نقل ثقيلة أيضاً. وأظنه يفضل مثلي قيادة الشاحنات على الوظيفة المكتبية، لذلك يضع نفسه دائماً على قائمة السائقين.

ـ وهذا يعني أن مسؤولياته في حال غيابه ستكون على عاتق مساعدته؟

ـ صحيح... ولكني واثق كل الثقة بالفتاة التي ستساعده.

غطت بروك يده بيدها شاكرة.

رفض دعوتها لشرب القهوة، وقبلها مودعاً بطريقة توحي بالتملك فقالت

له:

ـ أيعني هذا أنك لي، وحدي؟

فلكم فكها ممازحاً:

ـ بكل تأكيد يا حبيبتي... تذكري هذا.

ـ أنا لا أرغب في النسيان حتى... أنا أريد أن أكون لك... كان يجب أن تعرف هذا حتى الآن.

أمسكت بيده الممسكة بذقنها، تظاهرت بعض اصابعه. فتجنبها بسهولة:

ـ عفريتة... غاوية! أتظنين نفسك آمنة وأنت في سيارة خارج منزل أبيك؟ ماذا يمنعني من متابعة القيادة؟

ـ اندي... يجب أن أنزل... افترض أن أحد الجيران يراقبنا؟

ـ وما الخطأ في وداع رجل لخطيبته؟ على كل... العالم كله يحب مشاهد الحب. خاصة عندما يكون للقصة نهاية سعيدة.

لم يكن دايفد لوكربي يشابه ابن عمه بأي شكل من الأشكال فشعره أحمر بينما شعر اندي وتود أسود. ودايفد متوسط الطول بينما اندي وتود مديدا القامة. استقبلها دايفد بالترحاب قائلاً انه لم يكن يعرف كيف سيدير نفسه بدونها.

شرح لها دايفد أنه لا يفتقر لغياب المساعدة، بل لديه نقص في الموظفين فهو يحتاج إلى موظف نقل يتولى الشؤون المحلية.

ـ لدينا قسمان: قسم المسافات الطويلة وهذا أنا أتولاه، وقسم التوصيلات المحلية. وحتى نحصل على موظف كفوء وقادر سأبقى مرتبطاً بإدارته بنفسي...

وتابع:

ـ عادة يتصل بنا الزبائن ذاكرين تعليماتهم قبل يوم أو يومين من نقل الشحنة. ويرسلون تأكيد حجزهم بالبريد... زبائننا الدائمون يعرفون كل شيء عن «شروط النقل» لذلك لا يطلبون أي اعتراف منا.

ـ وماذا عن الزبائن الجدد؟

وفُتح الباب بهدوء ولكنها كانت مستغرقة جداً في الاحصاء فلم تستدر. فتابع:

ـ الزبائد الجدد، أو كما نقول «الطارئون» نبلغهم بشروط النقل قبل بدء العمل.

ـ وماذا يحدث عندما تصلك الطلبات؟

ـ يقوم موظف النقل. أي أنت في حال المسافات الطويلة، لتحضير أربع نسخ من كل الوثائق تشمل الفاتورة أي نسخة المرسل إليه، ونسخة للمؤسسة أو الشخص المستلم، ورقم الوصل ونسخة كاملة للملفات.

سمعت صوتاً مألوفاً يأتيهما من الخلف فالتفتت مذعورة لتجد نفسها أمام اندي الذي يرتدي ثياباً أنيقة ومع ذلك يبتسم باسترخاء:

ـ السائق يعطي نسخة المرسل إليه والفاتورة، وعليها يحصل على توقيع بوصول الشحنة سليمة... ويعطي الموظف السائقين الأوامر عندما يعودون والشاحنات فارغة خلال اليوم... وهكذا أصبحت تعرفين يا حبي... ولكن يبقى الكثير أمامك لتتعلمي.

قال دايفد محذراً:

ـ لا تفزعها... احتاجها لمساعدتي.

ـ ولكن اندي... لم أتوقع حضورك إلى هنا.

ـ مفاجأة، مفاجأة.

قبلها أمام ناظر دايفد المذهول وقال:

ـ لم استطع السفر دون وداعك... دايفد أحب أن تلتقي بعروسي!

واتسعت عينا دايفد وفغر فمه:

ـ أنت لا تعني... أنك... أنها.

ـ هذا صحيح. إنها خطيبتي.

ـ الإشاعات خاطئة... لن تتزوج سيلينا اذن.

ـ ليس سيلينا بالتأكيد.

نظر إلى ساعته لينهي الحديث:

ـ يجب أن أذهب الآن في طريقي إلى هالفيكس.

فسأله دايفد:

ـ هل ستصل إلى الميناء؟

ـ أجل ولماذا؟

ـ ليتني علمت مسبقاً بذلك، إذ ثمة حمولة ستصل إلى الميناء غداً. كان الأفضل لنا لو قدّمنا موعدها، لأننا نعاني من نقص في السائقين الذين أخذ معظمهم عطلات يقضونها مع زوجاتهم وعائلاتهم.

نظر اندي إلى نفسه... ثم نظر إلى بروك:

ـ بإمكاني أن آخذ بذلة معي... سأذهب إذا ذهبت معي يا بروك.

فصاح دايفد مغتاظاً:

ـ اسمع يا اندي! لا يمكنك مساعدتي بيد وسلبي المساعدة باليد الأخرى.

ـ حسناً... في كل الأحوال لن أصل في الموعد المحدد وعلى عاتقي شحنة علي إيصالها بدل ركوب سيارة سريعة تنقلني بلمح البصر برفقة فتاة تنسيني الوقت.

عانقها من جديد، فتعلقت به غير عابئة بوجود الرجل الآخر.

وهمست له:

ـ ارجع بسرعة.

سمعا إقفال الباب ترافقه ضجة مرتفعة... وبعد لحظات أصبحت بروك وحدها فاندي انطلق إلى ما يقصده.

عندما عادت بروك إلى المنزل وجدت أن والدها ليس وحده بل برفقة مارغريت ويتشفيلد.

ما أن سمعت المرأة صوت المفتاح في الباب حتى خرجت إلى الردهة... وهي امرأة ذات بنية قوية، وشعر مصبوغ مرتب، ووجه زهري

مستدير.

امتدت يدها لتصافح يد بروك، وابتسمت بحرارة:

ـ يسعدني الالتقاء بك... لقد بقيت هنا لأتعرف بك.

دخلتا غرفة الجلوس، وكان والدها ينتظر رؤيتها فابتسم عندما شاهدها وكأنه وجد ما كان يبحث عنه وقال ببساطة:

ـ كنت أعلم أنك ستحبين مارغو.

قالت مارغريت وهي تضع سترتها.

ـ لقد اتفقنا معاً بشكل جيد... علي الآن أن أعود إلى منزلي الصغير، ولأطهو لنفسي العشاء.

ـ هل يمكن أن أوصلك؟

ـ لا شكراً... لا أحب السيارات، تكفيني الدراجة، فهي تبقي جسدي في حال اكتمال ولا تكلفني شيئاً. ولكن شكراً على أي حال... سأعود صباح الغد.

التفتت عندما بلغت الباب وقالت لبروك:

ـ أرجو لك التوفيق أيضاً... لقد علمت أنك خطبت منذ وقت قصير... تهنئتي لك... ففترة الخطوبة رائعة.

ورفعت يدها بالتحية وخرجت، تدفع دراجتها في ممر الحديقة.

قال ستانلي عند عودة ابنته:

ـ يوم رائع... واختيار جيد للمساعدة. يجب أن أتصل بآبنر لأشكره.

كانت ابتسامته موجهة لنفسه أكثر منها إلى ابنته التي شعرت أنها بدأت تخرج رويداً رويداً من حياته فصداقته لا بد ستملأ عليه وقت الفراغ ومارغريت ستعطيه المساعدة التي يحتاجها.

كان يصغيان إلى الموسيقى في المساء عندما رن جرس الهاتف، فخفق قلب بروك بجنون وهي ترفع السماعة:

ـ بروك؟ كيف حال فتاتي!

صوته العميق حرك مشاعر الاشتياق فيها وأجابته بابتسامة وعيناها تتراقصان:

ـ أنا بخير... وكيف حال رجلي؟

سمعته يضحك ويقول:

ـ رُدّت إليه الحياة حينما سمع صوتك. يا إلهي يا فتاة لو أنك الآن على مسافة قريبة مني... لما نجّاك من بين ذراعي سوى انطلاق الأرض من مكانها في رحلة فضائية!

فضحكت:

ـ إنه لمن الرائع سماع صوتك يا حبيبي.

فرد بسخرية:

ـ أرى أنك تحبينني بعيداً أكثر مما تحبينني قريباً منك.

ـ بل أفضلك قربي.

ـ ما هو القرب الذي تفضلينه؟ القرب الذي لا يبقي بيننا مكاناً للهواء.

ـ بل أقرب.

حل الصمت متوتراً من الطرف الآخر. فتنحنحت:

ـ أين... أين تقيم يا اندي؟

ـ كالعادة في أحد أفخم فنادق المدينة.

ـ هل... أنت... وحدك؟

ما أن تلفظت بالكلمات حتى ندمت عليها فقد سمعت الرد الساخر الذي تستحقه:

ـ في الوقت الحاضر أجل... وهل كنت تظنين أنني اتصلت «بالخدمات الخاصة»؟ ألا تعتقدين أن الوقت باكراً على ذلك؟ ربما بعد ساعة أو ساعتين قد أشعر بالوحدة.

اشتد احمرار وجهها فصاحت به:

ـ اندي لوكربي... سأراك في الجـ...

فقاطعها بسرعة:

ـ لا يا حبيبتي، ستريني في منزلك حالما أتمكن من العودة. فهل يرضيك هذا؟

صمتت متعمدة، ثم قالت بصوت منخفض:

ـ نعم.

كسر الصمت بسؤال:

ـ ما بك، هل والدك يجلس قربك؟ بالله عليك يا بروك وهل هذا مهم؟ يجب أن يرضى بوجودي شيئاً فشيئاً إلا إذا كان ينوي طردي كلما زرناه بعد الزواج؟

ردت يائسة:

ـ إنه أمر في نفسه، ليس موجهاً ضدك شخصياً. بل لأنك رئيس الشركة. كيف له أن يحقد عليك بشكل خاص؟

كيف يمكنها متابعة الحديث وهي تعلم أن كل كلمة تقولها يسمعها الرجل الذي يتحدثان عنه؟

قال اندي معترضاً:

ـ لكن والدي هو رأس العائلة... ومع ذلك فلا يحمل له والدك ضغينة.

ـ اوه يا اندي... أرجوك... دعنا من الجدال... فأنا أحبك، وإذا كنت لا تحبني فقل هذا ولنفترق قبل أن يحصل المزيد من الخصام.

ـ بالطبع أحبك أيتها السخيفة... حاولي فسخ الخطبة وسترين ما يحصل.

وأقفل الخط... وبقيت بروك تحس بالفراغ، وصوت دوي الخط المقطوع يدوي في اذنها.

●●●

٩ ـ حقيقة أقوى من الحب

كانت بروك جالسة إلى طاولة مكتبها عندما أطلت عليها امرأة بادرتها بالقول:

ـ اذن أنت آخر نساء اندي؟

كانت المرأة تميل إلى السمنة، ترتدي قميصاً بنياً فاتحاً، وتنورة بنية قاتمة. لكن منظرها لم يستفد من أي شيء ترتديه، ومع ذلك بدت وكأن هذا الواقع لا يزعجها.

ابتسمت بروك بارتياب، جزئياً لأنها لا تعرف هوية تلك المرأة، ومن ناحية أخرى لأن الكلمات، دون شك، قيلت في سبيل جلب معلومات أخرى، تابعت المرأة:

ـ أنا سوزي... زوجة تود. أنت لست من الطراز المعتاد عليه. فنساؤه عادة من النوع الملتهب. وأتساءل كم من وقت سيبقيك معه.

دفع الغضب بروك للإجابة بحدة:

ـ نحن مخطوبان.

ردت المرأة ببرود:

ـ هه... هذا ما سمعت... أتمنى لك الحظ لأنك ستحتاجين إليه... كما ستحتاجين إلى مخالب لتنحية القطط عنه هذا إن لم أقل لمنعه من التسكع.

زوجة تود، كما قال حموها، ليست شيئاً يُنظر إليه، ولكنها تجمّل ما ينقصها بالذكاء والمنطق. ولكنه لم يكن يعلم بمرارتها، وهذا إحساس يتغلب كثيراً على المنطق، بالنسبة لابنه الآخر على الأقل... فهل يمكن أن تكون هذه المزارة تخفي في طياتها الاعجاب؟ هل أحبت سوزي يوماً أن تكون إحدى «نساء» اندي، ولكنها رضيت بتود؟

أم أن كلماتها قيلت بإخلاص؟ هل تحاول بطريقتها الفظة أن تحذر الفتاة التي أخذت عرض اندي للزواج بجدية، وتعتبر نفسها خطيبته؟

ردت بروك بصبر:

ـ الذى حدث أنني أحبه، وأتمنى أن استطيع بهذا الحب الحفاظ عليه بعيداً عن النساء الأخريات اللاتي قد يسعين إليه. لكن أشكرك على النصيحة التي أشك في أنني سأحتاجها.

نظرت إليها سوزي وقد ظهر دهاؤها، فقالت معلقة على قولها:

ـ أمعنت التفكير في الأمر ويبدو أن اندي هو من سيحتاج للحظ معك.

فابتسمت بروك:

ـ إذا كان هذا اطراء...

ـ هذا هو القصد.

ـ شكراً لك اذن.

بدا على سوزي كأنها تريد قول المزيد، لكنها هزت كتفيها وابتعدت. مر اليوم بسرعة مذهلة، ثمة عمل كثير، وأسئلة أكثر تطلب الرد. ولتوفير تلك الردود كان على بروك طلب النصيحة. وصل سائقون بشاحنات فارغة، فطلبت منهم الذهاب إلى ورشة التصليح للكشف على الشاحنات وإعدادها صالحة مجدداً للرحيل.

عندما عادت إلى المنزل، استقبلتها مارغريت التي سارعت إلى القول لبروك:

ـ أتضور جوعاً للغداء، لقد دعاني والدك. أتمانعين؟

ـ لا شيء قد يسعدني أكثر.

تعاونتا على تحضير الطعام. فكان أن جرى الحديث بينهما بسهولة وهو أمر لا يصدق إذ كيف أخذ كل شيء موضعه بسهولة منذ أن خُطِبت لاندي. لكن كل شيء كان حقيقة لا وهماً.

بعد ذهاب مارغريت، جلست وأباها يستمعان إلى موسيقاه المفضلة. لكن قلقاً بدأ يتغلغل في نفسها، قلقاً مرده إلى الخشية من ألا تصلها المكالمة التي تنتظرها. بدأ الشك يعلو ويهبط، وبدا لها مؤكداً أن المكالمة من اندي لن تصل، ولو انتظرتها حتى منتصف الليل.

بينما كانت مستلقية في الفراش مفكرة تساءلت عما إذا كانت سوزي على حق في ما قالته؟ فبدلاً أن تكون زوجته القادمة، هي الآن مجرد «زهرة في ياقة بذلته»؟ وعندما تذبل سيرميها؟

توقعت بروك كل يوم أن تستقبلها مارغريت في المنزل، لأن تلك المرأة كانت تنسجم وأباها فكرياً. فمنذ خطوبتها لم تعد تستطيع تجاهل التوتر الدائر في الجو بينهما. لقد أزعجها هذا الوضع، ولكن ستانلي ستون لم يكن يختلف مع أحد، خاصة مع ابنته المحبوبة. وهكذا بدأ التوتر يتراكم بدل أن يتلاشى عن طريق صدام قد يساعد على تنقية الأجواء.

ذلك المساء تأخرت مارغريت ساعتين معهما، قائلة لبروك وهما تغسلان الصحون معاً:

ـ هل تمانعين؟

ـ أنا سعيدة بك مارغريت. على الأقل بإمكاننا تجاذب أطراف الحديث. فأنت... عطوفة ومتفهمة.

ـ أوَ ليس والدك عطوفاً متفهماً؟

ـ ليس مثلك. صحيح أنني أفتقد أمي كثيراً ولكن هذا لا يعني أنني لست مولعة بوالدي.

ـ أعرف ما تعنينه... عندما تتحدثين معه، تجدين نفسك وكأنك تجذبين مرساة سفينة من أعماق المحيط.

فضحكت بروك:

ـ إنه دائماً غارق في أفكاره... مع أنه يصغي إلي بصبر عندما أتحدث معه عن عملي في شركة لوكربي، ولكن ما أن أتوقف عن الكلام حتى يعيد رأسه إلى الجريدة أو الكتاب.

ـ حسناً يا عزيزتي... بما أنني هنا الآن، لك حريتك في التحدث معي متى تشائين... سأخرج لأجلس مع والدك قليلاً.

نظرت بروك في ساعتها:

ـ هل يمكنني... كنت أفكر في القيام بنزهة بالسيارة.

فنظرت مارغريت إلى الخارج:

ـ إنها أمسية رائعة للنزهة... سأبقى برفقة أبيك... فلا تقلقي من أجله.

أحست بروك برغبة في معانقتها، لكنها وضعت يدها على ذراعها شاكرة، ثم ركضت إلى غرفة الجلوس:

ـ لن أتأخر يا والدي.

هز رأسه بعد أن رفع عينيه من كتابه.

عندما وصلت إلى محطة تعبئة لوكربي، عبّأت خزان وقود سيارتها، وأبعدت سيارتها ثم أوقفتها. كان تود في مكتب المحاسبة. أمامه مجلة أسبوعية غارق في قراءتها. عندما فتحت الباب، رفع رأسه متوقعاً رؤية زبون، لكنه لمّا شاهد بروك تملك وجهه تعبيراً مقلقاً. فقالت له:

ـ لا تبدو مسروراً برؤيتي.

دفعت ثمن الوقود، فأرجع لها بقية المال، ثم قال لها:

ـ أنت تتوهمين... كيف تعاملك الحياة؟ هل اشتقت إلى حبيبك؟

ـ جداً... ألا تشتاق إلى زوجتك عندما تبتعد عنك.

بدا أنها قد تفوهت بما هو خاطىء... فأي نوع من الزواج بين تود وسوزي؟ رد عليها بصوت ميت:

ـ انها لا تبتعد عني أبداً.

فابتسمت له:

ـ تود... أتمانع لو استخدم هاتفك؟

فنظر إلى وجهها الزهري، ثم بغرابة إلى عينيها وقال بصوت حاقد:

ـ شقراء زرقاء العينين... أنت تملكين كل شيء. وأنا على ثقة من أن الأخ اندي سوف يمتص اخر قطرة من عصيرك الأنثوي.

ـ شكراً على الإطراء الذي يخالف اطراء زوجتك التي شبهتني بزهرة يضعها اندي في عروة سترته حتى إذا ما ذبلت رماني. أما أنت فتشبهني بمصير دائم في حياته.

ـ ها هو الهاتف هناك استخدميه، لكن دعيني وشأني.

ـ عذراً على الإزعاج.

التقطت الهاتف ثم وجدت اصبعها طالبة الرقم... ولكن ما هو الرقم... كيف لها الاتصال «بأفخم فندق في المدينة» وهي لا تعرف اسمه أو رقم هاتفه؟

أعادت السماعة إلى مكانها، ثم التفتت بسرعة إلى تود:

ـ تود؟ في أي فندق ينزل اندي عندما يكون في هاليفكس؟

انخفضت المجلة، وامتدت ابتسامة خبيثة على فمه:

ـ لنفترض أنني لن أقول لك؟

ـ إن لم تخبرني عدتُ إلى المنزل.

ـ منتظرة ساعات طويلاً حتى يرن جرس هاتفك؟ هل نسيك ليلة أمس؟ أيتها الطفلة المسكينة؟

سخريته، هي الشيء الوحيد المشترك بينه وبين شقيقه الأكبر... ورفعت بروك رأسها، وسارت نحو الباب.

ـ حسناً... إنه فندق «البطة الذهبية» هل سمعت عنه؟
ـ أجل... فالأغنياء والمشاهير ينزلون فيه.
ـ لخطيبك ذوق مرتفع وباهظ في كل شيء إلا في المرأة التي اختارها زوجة له. إنه رجل عاقل يعطي زوجته البنسات، النساء الأخريات الشيكات الدسمة، لقاء خدماتهن...
ـ إنه يحب الإحسان... فلماذا أنت مغتاظ يا تود؟ شخصياً أعتقد أن زوجتك أكثر مما تستحقه.

اتجهت إلى الهاتف ثم أغلقت باب الغرفة وراءها... واستغرقت ثلاث دقائق لتجد رقم الفندق، ثم أمضت وقتاً أطول إلى أن وجدوا لها الرجل الذي تريد مكالمته. وعندما قال:
ـ لوكربي يتكلم.
وجدت نفسها صامتة. وسمعت أنفاسه، ثم صوته يقول:
ـ ما هذا بحق الجحيم...؟
وجدت صوتها أخيراً فقالت:
ـ اندي... هذا أنا بروك... لم تتصل بي ليلة أمس.
ـ لا.
ـ هل كنت مشغولاً؟ ألهذا لم...؟
ـ كنت مشغولاً جداً.
ـ ومع من كنت؟ مع سيلينا بايليس؟
ـ هكذا يكون الكلام يا حبيبتي.
ـ اذن لقد كان تخميني صحيحاً.
ـ متى قلت هذا؟
ـ توقف عن التلاعب بأعصابي يا اندي... حسناً قد يكون لك نساؤك لكن اعلم أنني لن أبقى على علاقة معك، لأنني أريد من الرجل الذي سيتزوجني أن يكون مخلصاً.
ـ وهل تحبينني.

ـ أجل وأنت تعرف هذا.
ـ ألا يجب أن نثق ببعضنا بعضاً ما دمنا مقبلين على الزواج؟
ـ حسناً... أنا آسفة... لكنني كنت بحاجة إلى سماع صوتك.
ـ صحيح يا حلوتي؟ لقد سمعته الآن، فكيف تشعرين؟
ـ اوه اندي... متى ستعود؟
ـ هل تتوسلين إليّ. أمَا قلت انك لن تتوسلي إلى رجل يوماً؟
ـ اندي لوكربي... سأقفل الخط في وجهك.

لكنها لم تستطع. بل صمتت، علم أنها لا تزال على الخط:
ـ تأخذين حريتك في الكلام الليلة، هل خرج والدك؟
ـ أتحدث من محطة الوقود.
ـ هل تكرم تود فسمح لك؟
ـ أجل... وهل يزعجك أن تدفع شركتك ثمن المكالمة؟
ـ بل على العكس لأن ذلك يخولني التحدث إليك مدة أطول.
دخل زبون إلى المكتب، وتمكنت من سماع حديثه مع تود بجلاء، وهذا يعني أن تود بدوره يسمعها... وأكمل اندي:
ـ عندما نلتقي مساء الغد، لا بد لنا من الانفراد لأنني عندما أضع خاتم الخطوبة الذي اشتريته في اصبعك، سأطالبك بكل الحب الذي تشعرين به نحوي. واعلمي أن مطالبي تلك لن يكون لها حدود أتفهمين؟
ـ اندي يجب أن اذهب الآن، تود هنا يتحدث مع شخص، ولا بد أنه سمع كل شيء قلته لك.
ـ فليسمع، لأنه إن لم يسمع، فقد يخترع أشياء.
ـ إلى الغد اذن... في أية ساعة؟
ـ الثامنة... في منزلي.
ـ تصبح على خير يا حبيبي.

كان تود وحده عندما انضمت إليه بروك:

- إذن أنت تحبينه حباً صادقاً.
- أجل... أحبه... أغريبٌ أن أحب خطيبي؟
تفرس فيها بعض الوقت:
- هو لم يخبرك بعد، اذن؟
- يخبرني عماذا؟
اشتدت قبضتاه فوق الطاولة:
- عن حادثة والدك.
- وماذا بشأن حادثة والدي؟
- إنه سر عائلي... حقاً. ولكن بما أنك ستصبحين قريباً فرداً من العائلة... أظن أن عليك أن تعرفي.
- ألا تظن من الأفضل ترك الأمر لاندي؟
- أنت آخر شخص قد يخبره اندي.
- حسناً... وما هو؟
- لقد كان اندي هو سائق الشاحنة التي صدمت والدك.
ترنحت بروك. ووضعت يداً مرتعشة على الطاولة لتسند نفسها وبقيت جامدة كالتمثال. دخل زبون... ثم خرج... وساد الصمت. وبدأ تفكيرها يعمل من جديد... لقد قال لها اندي: إن لم يسمع تود، لاخترع شيئاً.
- لا أصدقك.
- اسألي اندي اذن... الأمر أصبح كشبح العائلة.
كان عدم التصديق حبل نجاتها الآن. وعاد صوتها يتصاعد:
- لا أصدقك!

عند الباب التفتت... لتشاهد البسمة الشريرة على وجهه، فقالت متحدية:
- أنت فعلاً تكره شقيقك...
- أكرهه؟... أعترف أنني أحسده على كل شيء يمتلكه ولا امتلكه أنا.
- وتحاول جهدك سلبه منه.

- أنت إلى الآن لم تصدقي ما قلته؟ اسأليه، تأتك الحقيقة...
ستواجه اندي بالواقع، لكن ألم يقل لها بأن تود «يخترع الأمور»... أو لم يحاول خلق المشاكل بينهما عندما أخبره عن أمر الخطبة.

كلماته التي وصف فيها أخاه وأخلاقه ستبقى لها أكبر دعم حتى تواجهه طالبة الحقيقة منه.

انكبابها على العمل في مسؤولية قسم الشحن أثناء غياب دايفد الذي رحل ليوصل حمولة مستعجلة، أبقى قلقها بعيداً عن تفكيرها.

بينما كانت تقود السيارة إلى المنزل ذلك المساء. عاد القلق يستولي على ذهنها... كانت قد بدأت تعد الساعات لعودة اندي، وها هي الآن تعد الدقائق... ماذا لو أن ما قاله تود كان الحقيقة؟ ماذا لو أن اندي هو حقاً من صدم والدها؟

ولأن والدها غرق في كتابه، بعد ذهاب مارغريت فقد بقيت بروك وحدها تفكر، مراقبة عقارب الساعة، بخوف وتوتر لا بسعادة كما كان يجب أن يكون الأمر. لكن هذا التوتر الذي اجتاح كيانها أقعدها وجعلها أسيرة الظنون.

في السابعة والنصف دخلت غرفة نومها لتبدل ملابسها... وبينما كانت تنزل السلم... رن جرس الهاتف... أهو اندي يطلبها لإلغاء موعد المجيء؟

- آبنر يتكلم... هل والدك على استعداد لتقبل الزوار يا عزيزتي؟ لا أريد فرض نفسي عليه إذا لم يكن مستعداً.
ناداها والدها من غرفة الجلوس:
- من المتكلم يا بروك... آبنر؟ اطلبي منه المجيء لتؤنسني رفقته اثناء غيابك.
قال آبنر:
- سمعت ما قاله، أنا قادم بكل سرور.
قبل أن تستفهم عن اندي، أقفل الخط.

وصل آبنر بينما هي تستعد للرحيل. وعندما فتحت له الباب، رفع ذراعه الطويلة ليضعها على كتفها، وجذبها نحوه ليقبل خدها. وقال:

ـ اندي ينتظرك. سمعته وهو يذرع غرفته وكأنه أسد مسجون ينتظر أنثاه، وزوجته.

فضحكت ناسية توترها وقالت:

ـ لم أصبح بعد زوجته.

ـ ربما... لكنك ستصبحين... ستصبحين... والآن اذهبي. سأدخل وحدي دون حاجة إلى الترحيب.

بينما كانت تركض باتجاه سيارتها ناداها:

ـ سأبقى هنا إلى أن تعودي.

انطلقت تمضي حثيثاً، كانت شمس المساء قد أوشكت على الاحتضار. لكنها تركت بصمة على الجبال العالية. شعرت أن معنوياتها مرتفعة في هذه اللحظات كهذه الجبال المرتفعة، وكأنها تتوقع أن ينكر اندي كل ذلك الذي اختلقه تود في سبيل افتعال المشاكل.

فتح اندي لها الباب فوجدت أنه لم يبدّل بزة العمل. ما زال على قسماته ملامح رئيس العمل. ارتفعت عيناها الزرقاوان إلى عينيه بارتباك لكنها وجدت فيهما ترحيباً بها.

مد يده يتحسس ذقنها، ثم ارتدّ قليلاً إلى الوراء ليتأمل كل خنايا وقسمات وجهها قطعة قطعة، ثم انحنى إليها فضاعت، رفع رأسه مرة بعيداً عنها ثم عاد إليها يطلب المزيد والمزيد كأن شيئاً لن يروي ظمأه إليها.

أخيراً ابتعد عنها ممسكاً يدها جاراً إياها إلى جناحه الخاص ثم دخلا غرفة الجلوس ففتح فيها درجاً أخذ منه علبة فتحها وتناول منها خاتماً ثم رفع يدها التي لم يتركها لحظة ونزع الخاتم الأزرق ليضعه في اصبع آخر، وألبسها خاتم الخطوبة الرسمي. وقال:

ـ انه من الزفير والألماس. لم أنس قياس اصبعك.

برقت عيناها أكثر من بريق الالماس.

ـ اندي انه رائع الجمال! ولكن ثمنه!

ـ ماذا يهم الثمن والفتاة التي ستضعه في اصبعها أغلى عندي من كل الماس العالم؟

ـ صحيح؟

ـ أنت تعرفين الرد يا حبي.

راقبته وهو يخلع سترته ثم يرفع كميه لتبرز عضلاته القوية. ها هما اليدان القويتان اللتان تديران مقود الشاحنة العملاقة بسهولة...

أو... ها هما اليدان اللتان ربما فشلتا في تجنب صدم رجل، أُقعِد مدى الحياة.

ـ ألم تجدي الشجاعة بعد لتسأليني؟

اتسعت عيناها للسؤال، وعلمت أنه عرف باتهام تود له، وها هو يتحداها أن تتحداه... أيجب أن تواجهه الآن؟ بعد فترة قصيرة من جمع شملهما، في وقت هي في شوق إلى ضمه؟

ـ الشجاعة؟ لست أحتاج للشجاعة يا اندي... بل... للحظة المناسبة.

ـ ماذا عن الآن؟

رفعت رأسها بجرأة:

ـ حسناً... أرى أن تود أخبرك أنه أعلمني عن الحادثة. وأنك أنت كنت سائق الشاحنة التي صدمت والدي فأقعدته.

كتّف ذراعيه:

ـ تقولين هذا وكأنك تصدقينه. فهل حاكمتني في تفكيرك، وحكمت علي بالإدانة دون أن تسمعي دفاعي؟

صرخت فيه، كالشاة التي تعرف أنها على وشك أن تُذبح:

ـ اندي... لا تكلمني بهذا الأسلوب... لقد أكد لي تود أن ما يقوله صحيح. وأن الأمر أصبح كشبح للعائلة. وأنه سر يجب أن أعرفه لأنني سأصبح عضواً فيها. وقلت له انني أريدك أنت أن تخبرني لأنني لا

أصدقه... فقال... إنني آخر شخص قد ترغب في قول هذا له.

حدق فيها اندي... ثم ابتعد عنها لينظر إلى الخارج عبر النافذة حيث بدت الحدائق الجميلة تستحم تحت أشعة شمس المساء الذهبية.

همست وقد خاب أملها من ردة فعله غير الآبهة:

- اندي... انها ليست الحقيقة... أليس كذلك؟

لم يرد فركضت إليه تحيطه بذراعيها، تضغط وجهها إلى ظهره... تحمل إليه يأسها، ثم مد يديه إلى ذراعيها ليزيحها عنه:

- إنها الحقيقة... فما أنت فاعلة الآن؟

ارتدت مذعورة متلاشياً كل لون من وجهها. توقف، فتوقفت وقالت بصوت مرتجف:

- مع ذلك، تركتني طوال هذه المدة أؤمن أن الفاعل شخص آخر. وهززت كتفيك تخلصاً من المسؤولية. بالنسبة لك، ما كان والدي أكثر من حادثة مؤسفة. أنت لم تعتبر الحادثة أكثر من أمر سيء مرَّ بك حوّلته سريعاً إلى شركة التأمين.

- لكنه اعترف بمسؤوليته... وهذا ما كنت تعرفينه دائماً. إنه المخطىء، ثمة شهود أثبتوا هذا. لذلك لم تكن أمامه قضية يتمسك بها.

- حسناً... أقبل كل هذا... لكن تصرفاتك هي التي تزعجني... كذبك وخداعك لماذا لم تخبرني؟

- وهل أخبرك أنني كنت وراء مقود الشاحنة التي صدمت والدك؟ وهل سيكون لهذا فرق فيما حصل بالنسبة لنا؟

- نعم... نعم... ألا ترى؟ لا استطيع الزواج من الرجل الذي حطم أبي... ولن أشعر فقط بالاشمئزاز منه، بل أن والدي سيستمر في الحقد عليه مدى عمره. ولن يقبل بك صهراً له بعد الآن. وأنا لن أدعه وحيداً أبداً.

بدأ يتحرك نحوها مرة أخرى، فتراجعت وفي أعماقها خوف غريب ينمو

في داخلها. رأته يفك ربطة عنقه، ثم أزرار قميصه... ويقول بصوت منخفض:

- هل أثير اشمئزازك؟ لقد عرفت الآن ما عرفته... فهل التفكير في أن يداي ستلامسانك يجعلك تتكمشين خوفاً؟ هاتان اليدان اللتان كانتا السبب في ما أصاب والدك.

فصرخت به:

- توقف عن هذا!

بدا وكأنه رجل آخر، مختلف، مخيف لكنه ساحر، أرادت الهرب منه لكنها أرادت أكثر الهرب إليه. ووصلت في ارتدادها إلى خزانة فاسندت ظهرها إليها. ثم أصبح هو أمامها يضغط بجسده عليها. وتجذبها ذراعاه إليه وكأنه يبغي تهشيمها، وأحست بأنها تريد أن تقاوم لتلتقط أنفاسها. وقال لها من بين أسنانه:

- لقد قلت لك على الهاتف، انني بعد أن أضع خاتم الخطوبة الرسمي في يدك، لن يكون هناك حدود لمطالبي. وها أنت تضعين خاتمي وسأفي بوعدي.

بدا غاضباً... غاضباً منها... ولكن لماذا... لماذا يغضب منها؟ فهو من ارتكب الجريمة... لا هي. فكيف يلومها على رفضها له الآن بعد معرفتها بالحقيقة. بعد أن عرفت كم هو مخادع؟

ورفعها بين يديه دون أن يبالي بكل المقاومة التي أظهرتها... ثم أحست بنعومة الفراش تحتها... وبثقله يرتاح إلى جانبها.

- سوف أنال منك... سأنتزع هذه الطهارة البادية في عينيك وأجعلك لي بشكل كامل حتى يهرب منك أي رجل آخر قد يقترب منك مستقبلاً.

كان عناقه وحشياً ويداه قاسيتين تعاقبانها ناقلة إليها ذاك الألم الذي يشعر به. حرارة رغباته جعلت الدماء تغلي حارة في شرايينها.

أحست بالضياع من شدة حبّها له. إنها تريد أن تصبح جزءاً من كيانه.

كان في جسدها رغبة عارمة في أن تعطيه ما يريد، دون الاهتمام بالطريقة الخشنة التي يعاملها بها.

وبينما كانت تقاوم مشاعرها شهقت تريد الوصول إلى أرض أكثر صلابة من التفكير السليم، كانت تعلم أن الوقت لن يطول قبل أن يستسلم جسدها له من تلقاء نفسه... إلا إذا انتصر تفكيرها ومنطقها واقنعته كلماتها بأن يعود إلى تعقله.

عندما أحست بضعفها أمام قوته علمت أن المحتوم على وشك الحصول راحت دون أن تشعر تبكي وترتجف من قوة مشاعرها. وتدفقت الدموع تبلل وسادته، وتغطي وجهها إلى أن أحست بطعم الملح في فمها. ولا بد أنه أحس بالطعم نفسه، لأنه رفع رأسه، وأخذ ينظر إليها وعضلات فكه تتراقص. تدحرج فوق السرير مبتعداً عنها وبقي مستلقياً يحدّق إلى السقف، لكن جموده هذا أخافها.

ـ إذن... أنا أثير اشمئزازك... لقد أدنتني!

سخريته في مثل هذا الظرف كانت مثل الإهانة الجسدية لها تماماً. وببطء... نزعت خاتمه الألماسي من اصبعها. ووضعته على صدره الذي لا يكاد يتحرك. فالتقطه ورماه إلى الأرض... فتحركت واستلقت على وجهها وتركت دموع اليأس تخرج.

فوقف، وملس شعره بيديه، ثم زرر قميصه، وتقدم إلى النافذة:

ـ الأفضل أن تذهبي... لا أريد زوجة لا تثق بي!

وعادت تستلقي على ظهرها تمسك بأطراف قميصها وصاحت به:

ـ وكيف أقدر أن أثق بك؟ لقد اعترفت بصحة ما قاله تود.

نظر إليها نظرة عميقة قاسية وخرج... فليس هناك من رد يستطيع قوله. بل أنهما لن يبقيا صديقين حتى... فكيف يحبني؟ وهل ستبقى في العمل لديه؟ وهل سيستمر والده بزيارة والدها؟

عندما عادت إلى وعيها أدركت أنها ما زالت مستلقية على فراشه لا على

فراشها، أجفلت ووقفت على الفور لتتنعل حذاءها. عندما نظرت في المرآة احمرّ وجهها من رؤية شعرها وثيابها في اسوأ حالاتهما.

سارعت إلى ترتيب شعرها وثيابها... وما هي إلا لحظات حتى فتح الباب وعاد اندي إلى الغرفة:

ـ هل تريدين المزيد؟ هل كنت تنتظرين عودتي إليك في الفراش؟

ـ قررت أن تلازم الصمت، والتفتت إلى المرآة وعادت إلى تمشيط شعرها. وقالت:

ـ أرجو أن لا تمانع في استخدامي هذا.

ـ أنا أستحم كل يوم. وهذا يعني أن شعري نظيف. لذا فالمشط يناسب ملكة... ولا يناسبك أنت.

الكلمتان الأخيرتان كانت تحملان نوعاً من الازدراء... فاستدارت نحوه:

ـ لماذا أنت هنا؟

ـ هذه غرفة نومي... وأظن من حقي أن اسألك هذا السؤال.

ـ أنت من جئت بي إلى هنا.

ـ جئت بك للحب.

ـ الذي انقلب إلى كراهية.

ـ هكذا اذن... صحيح؟ بما أنه ليس لك التفكير السليم للخروج ساعة سمحت لك، استطيع الآن إقفال الباب لأفعل ما أريد بك.

تقدم نحوها، ولكنها أجبرت نفسها على البقاء حيث هي وأمسكها بذراعه وضغط عليه باصابعه، فتألمت ولكنها أسكتت صرخة كادت تفلت منها.

ـ ما بك؟ أما عدت تحبين لمساتي؟ أتحسين الآن بالكراهية بعد أن عرفت أن هاتين اليدين هما سبب عجز والدك؟

ردت عليه وشفتاها لا تكادان تتحركان من الألم:

ـ أنت تؤلمني يا اندي.

بعد أن شهقت من الألم أرخى قبضته التي ستحمل آثارها على جسدها أياماً. هذا كل ما بقي من حبهما إن كان هو فعلاً يحبها.

ـ سأوصلك.

ـ سأوصل نفسي... معي سيارتي.

فهز رأسه

ـ لقد اتصلت بطوم الذي أخذها منذ عشر دقائق إلى منزلك. وبعد أن أوصلك سأصطحب والدي... بالنسبة لوالدي... لدي طلب أطلبه منك. إنه سعيد جداً بخطبتنا لذا قد تكون صدمته كبيرة عندما يعلم أنها لم تدم سوى بضعة أيام. وصدمة كهذه قد تودي به إلى كارثة.

كان الخاتم حيث رماه على الأرض، فنظرت إليه ثم إلى صاحبه:

ـ أتطلب مني أن أستمر في التظاهر بأنني خطيبتك؟

استدار نحوها بابتسامة ساخرة:

ـ صحيح... أهذا صعب؟ أنت لا تعترضين على مغازلتي. ولو رفعت اصبعي الآن وأومأت إليك لقطعت المسافة بيننا كالطير.

ـ أجل... سأقطع المسافة في لحظات ولكن لأقذفك بشيء يؤذيك. وسأتأكد من أنني سأصيب الهدف!

استدارت لتكمل تزرير قميصها، فأحست بالاحراج لأنها وجدت أنه تمادى كثيراً في فك تلك الأزرار... فقال لها:

ـ ما بك... هل كنت مأخوذة إلى هذه الدرجة بما أفعله بك فلم تعرفي أين وصلت يداي؟

ـ اوه... أيها المقـ...

ـ ما ردك بالنسبة للخطوبة، هل أنت ممثلة بارعة؟

ـ حتام سأستمر في التمثيل؟

ـ صدقيني يا حبي... لن تستمر مدة أطول من الضرورة. فأنا رجل أحب تحقيق رغباتي كما أريد، ولست على استعداد لاحتمال امرأة باردة لا تريدني لذا فأنا أتوق إلى انهاء العلاقة بشوق أكبر من شوقك.

فأجابته بازدراء:

ـ لديك سيلينا بايليس لتعود إليها.

ـ آه... أجل... بالتأكيد سيلينا لها فائدتها، لكن لا للرجوع إليها يا حبي... لا شك في أنك تعرفين الدوافع «البيولوجية»؟

فتنفست عبر أسنانها:

ـ أنت... أنت تقرفني... اندي لوكربي!

ارتفعت يدها في الهواء وانطلقت إلى وجهه، ولكنه أمسكها وجذبها نحوه بقوة... حتى اضطرت إلى التمسك به وهي تشعر بأنه قد يغمى عليها في أية لحظة... لا استطيع التنفس... لا استطيع احتمال الألم... وعندما تركها، اضطرت للانحناء ولإمساك رأسها بين راحتيها لتمنع الاغماء. راح يراقبها دون أن يمد لها يد المساعدة يبتسم بطريقة قاسية... وأخيراً قال بهدوء:

ـ والآن التقطي ذلك الخاتم عن الأرض فستضعينه.

ـ التقطه أنت. أنت من رميته هناك.

ضاقت عيناه:

ـ أنا أنتظر!

أطاعته وفي قلبها يتفاعل كرهها شديداً ثم أعطته الخاتم لكنه بدا وكأنه لم ينتهِ بعد من إذلالها... فهز رأسه:

ـ هذه خطبة زائفة... ضعيه بنفسك.

ـ لدي فكرة أخرى ما رأيك بأن أرميه...

ـ اعملي بنصيحتي يا حبي... وسيطري على أعصابك قبل أن أريك بعضاً من أعصابي.

أجبرت نفسها على إعادة الخاتم مكانه وقالت بغضب:

ـ كان خيراً لي أنني عرفتك في النهاية! إنني أعرف الآن حقيقة أخلاقك. أيها القذر... العفن المنحط الذي يقارب المجرم...

وقبل أن تنتبه امتدت يده إليها تصفعها بقوة وقاومت لتبقى واقفة من

تأثير الصفعة... آلمها خدها، وارتجفت شفتاها، وتدفقت الدموع من عينيها.

ابتعدت ويدها فوق احمرار خدها. وبعد صمت طويل متوتر قالت:

ـ أنا آسفة.

تقدم من الباب:

ـ سأحضر سيارتي أمام الباب... لاقيني هناك.

●●●

١٠ ـ الرجل السَّراب

كانت الأيام التالية لا تطاق أبداً. فالعمل الذي تقوم به وإن كان في قسم الشحن إلا أنه يقع في قسم المكتب الرئيسي وهذا يعني أنها مضطرة إلى سماع صوته غالبا.

وعندما كانا يلتقيان في مكان وحولهما أحد، كان يبتسم لها لكن دون أن ينظر إلى عينيها. بل أنه أحياناً كان يوقفها ليطبع قبلة سريعة على خدها. أما عندما يدخل فيجدها وحدها فكان لا يكاد ينظر إليها، بل يعاملها وكأنها لا تعدو أن تكون موظفة عادية.

في نهاية الاسبوع الأول، استدعاها إلى مكتبه. ودعاها بشكل عفوي للجلوس، وبقي واقفا ليقول:

ـ هذا لا يكفي... والدي بدأ يشك... ويسألني لماذا لا نرى بعضنا في أوقات فراغنا... فهل لاحظ والدك شيئاً؟

ـ مارغريت تبقى معنا كثيراً هذه الأيام، وكأنما هو يشجعها، ويحضر نفسه لليوم الذي سأتزوج فيه واترك المنزل.

ضرب بالقلم على الطاولة:

ـ هل مارغريت سعيدة بالبقاء معه وبتمديد واجباتها؟ ألا يظهر عليها الارتباك أو التردد مثلاً؟

ـ بل على العكس إنها تظهر السعادة فهما متفقان جيداً، وفي الواقع أتساءل ما إذا...

www.liilas-romancia.com

- وهل يكون من الجيد لو تزوجا يوماً؟

بذلك اكتشف أفكارها وأعلنها... الأمر رائع لو أننا كنا سنتزوج...

هزت رأسها فسألها:

- وماذا ستفعلين؟

كان بارداً لا يظهر الاهتمام بمستقبلها، وهذا يظهر كم كان كاذباً عندما ادّعى أنه يحبها... فردت دون اكتراث:

- سأترك المنزل... سأجد عملاً.

- لديك عمل... في شركة لوكربي.

عمل في شركتهم... كي تراه كل يوم، وكي تمر به دون أن يتعرف إليها بعد فسخ الخطوبة، معاملاً إياها بلا مبالاة تفوق معاملته لهذا القلم الذي يضرب به الطاولة؟

ودت لو ينتبه للكره الذي أخرجه صوتها:

- لن أبقى هنا... شكراً لك...

- كي يكون الاتفاق بيننا مقنعاً، يجب أن نقضي بعض الأوقات معاً. هذا المساء سأصحبك للعشاء في مكان ما.

قفز قلبها، ولكن ليقع دون جدوى. فليس الغاية من خروجهما سوى المظاهر.

- إذا رغبت في هذا.

- سأمر بك عند السابعة.

عندما وصل اندي إلى منزلها، كانت مارغريت موجودة فنادت:

- انه هنا... سأبقى إلى أن تعودي... لا... لا مانع لدي إطلاقاً. ولا أظن أن والدك يرغب في الخلاص مني كذلك.

فصاح ستانلي من غرفة الجلوس:

- بكل تأكيد... فأنا أرحب بصحبتك.

مد اندي يده إلى بروك. في السابق كانت تبقي رأسها منخفضاً حتى يطالبها بقبلته. ولكن رافق طلبه اليوم ضغط مؤلم على اصابع يدها.

ابتسمت له ابتسامة فيها عتب، فشاهدت فكه يتحرك بانزعاج. نظرت مارغريت إليهما متسامحة:

- استفيدا من أيام الانتظار... شباب اليوم لا يعرفون ماذا يخسرون من المطالبة بكل شيء دفعة واحدة... لن أقبل بأن أكون شابة في مثل هذه الأيام ولو لقاء ثروة!

وصلوا إلى غرفة الجلوس، فابتسم ستانلي لهم ثم قال لمارغريت:

- أنا واثق أنك تكذبين يا عزيزتي... كوني صادقة واعترفي أنك تتمنين عودة الشباب.

- ستتحدث بهذا في وقت آخر... فأنا أجد السعادة الآن في النظر إليهما. هل شاهدت في زمنك مثل هذه السعادة؟

توقفت نظرة والدها عليها للحظات، ثم لما انتقلت إلى رفيقها. حل في عينيه تعبير غريب... أهو تساؤل أم تحليل؟

كان الطريق عبر الوادي، والمروج المحيطة بالنهر يكاد يقطع الأنفاس حتى شعرت بأن لا ضرورة في التفوه بكلمة... فأين ذهبت نظرة الحب تلك، التي أظهرها أمام والدها ومارغريت؟ وأين ذهبت تلك السعادة التي شعرت بها لوجودها معه؟

قبل نهاية العشاء... قال لها:

- يجب أن نلتقي في الغد. لا أعرف بما تشعرين لكنني أجد التظاهر بالسعادة يصيبني بالتوتر.

- لقد وافقت على كل هذا لأجلك فقط.

- وهل أنكرت هذا؟

- ماذا تقترح أن نفعل؟

استدعى الفاتورة ودفعها ثم قال:

- سأمر بك غداً وحينها نرى ما العمل. وسأكون في اجتماع طوال يوم الغد.

www.elromancia.com

كانا يتجهان نحو الباب وسترتها فوق كتفيها، عندما اجابت:

ـ جيد... هذا يعني انني لن اضطر إلى مقابلتك في الممرات، ولن أجبر نفسي على الابتسام لك.

فقال من بين أسنانه:

ـ بعد دقيقتين من الآن، سأطرحك على ركبتي، وأضربك ضرباً مبرحاً.

ـ كما ضربت والدي!

خرجت الكلمات منها قبل أن تعي أن شفتيها ستتفوهان. وصرّ على اسنانه ثم قال وهو يفتح السيارة وينظر إلى عنقها:

ـ لقد غيرت رأيي... سأمسكك من مكان أخطر بكثير...

فاستدارت عن السيارة مبتعدة... ولكنه في بضع خطوات كان إلى جانبها يمسك ذراعها ليديرها نحوه ويعيدها إلى السيارة. فقالت بغضب، وقد اختنقت بالدموع:

ـ لا تكلمني بهذه الطريقة!

ـ معك حق... ها قد بدأت اتساءل كم من الوقت ستبقين قبل أن تخرّي ساجدة أمام قدمي.

صفقت باب السيارة خلفها:

ـ أوصلني إلى البيت... فقط أوصلني إلى البيت!

وهذا مافعله دون يتكلم كلمة واحدة.

عند الباب قال لها:

ـ أراك غداً.

فأجابته بحدة:

ـ لأجل والدك فقط!

واستدارت لتدخل.

ناداها في اليوم التالي وهي تسير مع دايفد في الممر:

ـ لا تنسي هذا المساء.

فأجبرت نفسها على الابتسام ولوحت له.

قال دايفد معلقاً:

ـ وقع في فخ عميق حقاً... لم أره مأخوذاً بامرأة من قبل هكذا. ما الذي تمتلكينه لا تمتلكه الأخريات؟

اتسعت ضحكته:

ـ لا... لا تجيبي... سأجيب أنا... لا شبيه لك في أي مكان آخر. لو أن في الوجود فتاة أخرى تشبهك لاخترتها.

فردت بروك:

ـ ليس لدي أخت. آسفة لهذا.

ـ أنا الآسف.

افترقا مبتسمين.

في المساء، عندما وصل اندي، أوقف السيارة عند المنعطف ثم أطلق الزمور. فسألها والدها:

ـ لماذا لا يدخل؟

دهشت بروك من سؤاله... فهل يريد أن يزيد معرفته بالرجل الذي سيصبح صهره؟ ردت عليه:

ـ أنا مستعدة للخروج... انظر!

أجبرت نفسها على إظهار سعادة لا تعكس مشاعرها. فتقبل والدها تفسيرها. وعاد إلى كتابه، فقالت له:

ـ سيحضر آل هاملتون ليحضروا لك القهوة بعد قليل.

فتمتم منزعجاً:

ـ لست أدري لماذا لم تقبل مارغريت البقاء.

ومن جديد أصابتها الدهشة:

ـ لقد قالت لك انها ذاهبة للعب الورق يا أبي.

ـ بإمكاني مرافقتها. صحيح أنني لا استطيع استخدام ساقي لكنني قادر على استخدام عقلي إضافة إلى يداي.

ازدادت دهشتها، وقالت لاهثة:

www.elromancia.com

- لو علمتْ أنك مهتم بذلك لدعتك فأنا واثقة من ذلك.

فتنهد بعد أن سمع صوت الزمور ثانية:

- هيا اذهبي... فالشاب في الخارج قد نفذ صبره، وأصبح أسوأ مني... وأنا الذي كنت أظن نفسي غير صبور!

فضحكت بروك، وأسرعت في الخروج... وبقيت الضحكة على شفتيها وعينيها إلى أن دخلت السيارة. فنظر إليها اندي حائراً:

- هل يثيرك قضاء ليلة مملة مع خطيبك الذي سرعان ما سترمين خاتمه في وجهه؟

- ضحكت على شيء قاله والدي... عنك.

- اوه؟ وماذا قال عني؟

- لقد قال انك فاقد الصبر... وإنك اسوأ منه في الواقع.

بدا على صوته التجهم:

- انه محق. وخاصة مع فتاة شابة حمقاء وزرقاء العينين، لا ترى أبعد من أنفها.

- وماذا تعني بهذا؟ أتريد افتعال شجار بيننا؟

ولم يرد. وسألته:

- إلى أين سنذهب؟

- إلى منزلي... والدي خرج لزيارة أصدقاء له. وعليه ستكون وحدنا.

كان الجو بينهما أي شيء عدا كونه مريح. كانت تشعر حتى وهما في السيارة، يملك عليها حواسها فالدم غلى في عروقها حتى قبل أن تبدأ الأمسية حتى.

ولجت السيارة بوابة الحديقة فوقف أمام الباب حيث استقبلها الوالد:

- أهلاً بك... ادخلي يا عزيزتي... وتمتعي بالراحة فسيصبح هذا يوماً منزلك...

كرهت بروك خداع هذا الرجل الدافىء القلب، ورفعت نفسها لتقبله

فقال ببهجة:

- يا إلهي... ستكونين لي «كنّة» رائعة! لقد اخترت خير النساء يا بني! لقد تأخرت وأنت تقلب النظر، ولكن عندما قررت أجدت اختيار أفضلهن.

نظرت إلى اندي والشك يملأها. فوجدت وجهه خالياً من التعبير:

- أعتقدتك ستزور بعض الأصدقاء.

فهز رأسه.

- أحس بتوعك بسيط لذا رأيت أن قضاء أمسية هادئة في منزلي خير لي.

لاحت أمام بروك فرصة لتمضية الوقت الذي كانت تخشاه فقالت:

- أتسمح لنا بالانضمام إليك.

جلست وكأنها تستعد لقضاء السهرة والليل كله هنا إذا لزم. نظرة سريعة إلى اندي أعلمتها أنه انزعج... فربتت المقعد التالي لها:

- تعال اجلس معي يا حبيبي.

جلس آبنر في مقعده المفضل، أما اندي فخلع سترته ثم قال:

- بكل سرور يا حبيبتي.

تقدم منها، وبدل الجلوس على المقعد الذي أشارت إليه، انحنى فوقها فحملها وجلس مكانها ثم وضعها في حضنه.

عرفت أنها قد وقعت في شر أعمالها. وضحك في وجهها، القريب جداً من وجهه، ثم طبع قبلة سريعة على خدها. دون أن تستطيع شيئاً... أخفضت رأسها إلى صدره، وأخذت تنظر إلى الفيلم. وعندما وضع ذراعيه حولها ليجعلها مستريحة أكثر، تنهدت بحرارة وقد تحركت فيها مشاعر أخرى من جراء وضعهما الحميم هذا. لكنها بعد قليل وجدت أن من المستحيل بقاءها حيث هي. أخذ تتململ والقناعة بدأت ترسخ أكثر فأكثر بأنها في هذه الظروف، لا يجب أن تستلقي بين ذراعيه. وأن لا حق له أصلاً في أن يضعها في حضنه... لماذا يبالغ في الادّعاء؟ لماذا لم يجلس على كرسي آخر ليبتسم لها من وقت لآخر؟ فهذا سيرضي أباه، وهذا ما يريده.

أخذت تتململ لتوحي إليه بأنها غير مستريحة... لكنه شدّد ذراعيه حولها، منذراً إياها بالبقاء جامدة لئلا يلاحظ والده شيئاً.

فغضبت وتظاهرت بأنها تهمس له:

ـ اندي... اتركني!

فهمس لها بدوره:

ـ ستبقين حيث أنت إلى أن أنتهي منك!

استعر غضبها... وسمعت ضحكة مرتفعة من آبتر ولكنه لم يلتفت وبعد خمس دقائق انتهى الفيلم فوقف، ومدد نفسه.

ـ أظن أنني سأذهب إلى النوم.

بدا القلق على اندي:

ـ أتحس بشيء؟

ـ لا يا بني... تعب بسيط. كما أنني أعتقدكما لا ترغبان في وجود عجوز مثلي بينكما.

حاولت بروك الوقوف، فشدها اندي إليه ثانية فقالت:

ـ أرجوك سيد لوكربي، لا تذهب بسببنا... فنحن...

ورفع يده:

ـ سأصعد للنوم. أراك في الصباح يا بني.

تركها اندي بعد أن ذهب والده فجلست على مقعد آخر:

ـ أعدني إلى منزلي.

ـ عندما أكون مستعداً.

ـ إذن سأذهب سيراً.

اتجهت نحو الباب... فقال بلهجة تحمل السلطة والتهديد:

ـ ستذهبين عندما أكون جاهزاً.

قال ذلك واتجه نحو النافذة ليحدق في الظلام.

ـ حسناً، سأبقى من أجل والدك فقط، لكن على الأقل أدر التلفزيون، لا استطيع البقاء هكذا معك دون أن أتسلى...

أدار لها التلفزيون، لكن تفكيرها لم يستقر عليه لحظة بل انجرف إلى هذا الرجل الواقف على بعد خطوات منها... ولم تدرِ وهي محمولة بين ذراعين قويتين أنها قد غطت في النوم. فصاحت مذعورة:

ـ أنزلني... أنزلني فوراً!

تجاهل رجاءها وطلب منها السكوت. وعند الباب سألته:

ـ إلى أين ستأخذني؟

ـ إلى منزلك... هل خاب أملك؟ هل كنت تريدين مني أن أنقلك إلى فراشي؟

ـ إذا لم تنزلني في الحال فسأصرخ!

ترك جسدها ينحدر من بين ذراعيه بكل خشونة لتقف.

ما أن توقفت السيارة أمام منزل والدها حتى فتحت الباب وخرجت... ودون أية كلمة... سارت عبر بوابة الحديقة إلى المنزل، وسمعت السيارة تبتعد.

في الصباح التالي بينما كانت بروك في مكتبها تتلقى تفاصيل طلب من زبون عبر الهاتف دخل اندي... وانتظرها إلى أن انتهت، ثم تأكد من وجودها وحدها وقال:

ـ أنا مرتبط الليلة بموعد.

ـ هذا يعني أنني سأكون حرة.

اختار دايفد تلك اللحظة بالذات للدخول.

ـ حرة؟ صحيح؟ هذه فرصتي إذن هل ترافقينني يا بروك؟

فقال اندي ببرود لابن عمه:

ـ متى اكتسبت عادة الاستيلاء على أملاك الآخرين؟

ـ اوه... ! أنت حقاً غارق حتى أذنيك وتطالب بحقك يا رجل!

فتحت بروك فمها لتحتج وقد احمرّ وجهها فسارع اندي إلى القول:

ـ أنت تختار كلمات غير مناسبة يا دايفد.

ـ آسف يا بروك، لكن خطيبك يشير إليك كأملاك له، وهذا ما قادني

www.elromancia.com

للاعتقاد... أنت تعلمين ماذا.

فابتسمت بـروك:

ـ لا بأس.

أظهرت غضبها أمام اندي. وهذا أمر غبي، لأن إظهار غضبها يعني عرض ضعفها أمامه، وهذا يعني أنه سيستغل هذا الضعف متى سنحت له الفرصة فقالت لدايفد:

ـ إذا كنت جاداً في دعوتك... أحب أن أخرج معـ...

فرفع دايفد يده مدافعاً:

لن أتحدى ابن عمي... فأنا سعيد بما أتقاضاه أجر عملي عنده. لذا لا أريد أن أخسره في الخروج مع فتاته التي سيتزوجها.

التفت إليها اندي ليمنعها عن أي كلام آخر:

ـ غداً يا حبيبتي... سنذهب إلى منزلي حيث سيكون والدي في الخارج.

عندما خرج نظر إليها دايفد بارتياب:

ـ في منزله؟ وحدكما؟

ـ انه يتظاهر.

ـ يتظاهر... أهكذا تسمين الأمر؟ ولكنني اسميه على حقيقته، وبأحرف فخمة. لم تسيطر امرأة قط عليه كما تسيطرين أنت.

لو أن دايفد يعرف... انه لم يسمح بعد لأية امرأة بالسيطرة عليه. ولا حتى للفتاة التي تقدم منها يوماً خاطباً.

ماذا لو لم يكن هو من سبب الإصابة لأبيها، وماذا لو لم تُعد له خاتمه؟ هل كان سيبقى مخلصاً لها كل حياته؟

أم أنه كان سيبتعد... عاجزاً عن مقاومة سحر «النساء الأخريات»؟

● ● ●

١١ ـ الشمس تشرق ثانية

ذهبت مارغريت إلى منزلها في الوقت المعتاد بعد أن ساعدت بـروك في تنظيف صحون وجبة العشاء. وبينما كانت تهم بالخروج من باب الحديقة تجر دراجتها، وصلت سيارة فوقفت عند المنعطف ثم خرج منها آبنر لوكربي.

وتحدثا للحظات قرب البوابة، ثم أكمل آبنر طريقه إلى حيث كانت بـروك واقفة تنتظره. سألها بصوته المرتفع:

ـ هل والدك في مزاج لاستقبال زائر؟

فناداه ستانلي من الداخل:

ـ أهلاً بك آبنر. كنت آمل أن تجيء... فأنا مشتاق إلى لعبة الشطرنج.

جلس آبنر في كرسي مريح ليجيب عن سؤال بـروك بشأن صحته:

ـ في صعود وهبوط، لكنني أحمد الله أنها في صعود أكثر من هبوط فنحن من نصبح أصغر عمراً... أليس كذلك ستانلي.

فسارعت بـروك إلى الإعلان:

ـ ولكن أبي الآن رجل خاطب.

ـ لا... غير صحيح! من هي المحظوظة يا ستانلي؟ أهي مارغريت ويتشفيلد؟

أجاب ستانلي بالإيجاب فانفجر آبنر ضاحكاً:

ـ الأب مثل ابنته، وهذا تلاعب على قول قديم.

خاطب...! وتلاعبت بروك بالخاتم في اصبعها... انه لم يعد لها... انه في يدها فقط لإرضاء... لا... فلتكن صادقة مع نفسها... لخداع رجل مريض! قالت:

ـ سأخرج للقيام بنزهة في السيارة يا أبي... وقد أتمشى قليلاً.

فهز الوالد رأسه دون اكتراث، فبوجود صديقه العجوز معه، لن يحتاجها وعندما تصبح مارغريت زوجته، لن يعود بحاجة لابنته مطلقاً. وماذا بعد؟

خرجت بسيارتها لتجتاز القرية... التلال البعيدة كانت تومىء لها، ورغم الهواء الذي اشتد برده بسبب أفول الشمس إلى المغيب، كانت الشمس ما تزال عالية إلى حدّ ما جعلها تفكر في عدم الصعود إلى قمة تلة ومع ذلك أوقفت السيارة وصعدت إلى القمة، فظهر لها المنظر الممتد أمامها في غاية الروعة والجمال.

رفعت نظرها لتستوعب منظر الوادي والتلال البعيدة الأخرى المشرفة على الحقول، والأشجار المتناثرة، وبدأت الأفكار القريبة من قلبها تعاودها... وتذكرته... لقد قال ان لديه موعداً هاماً... فأين ذهب؟

بعد أن تغيرت ظروف حياتها إلى هذا الحد لم يعد بمقدروها ادّعاء خطوبة زائدة... "إذا تمّ إيصال الخبر بلطف إلى والده... فإنها متأكدة من أنه سيستقبله بهدوء كأي شيء من الأشياء التي تحدث في هذه الأيام. أيام العلاقات المتغيرة على الدوام.

وملأت رئتيها جيداً بالهواء النقي، ملأت فكرها بالهدوء والسكينة. وأسرعت تتقدم في العتمة إلى سيارتها التي أدارتها مبتعدة عن التلال والوادي والمراعي باتجاه منزلها.

ظهرت أمامها سيارة في الاتجاه الآخر. كانت الطريق ضيقة لذا لا بدّ من ابطاء السرعة، وترك المجال للسيارة الأخرى الكبيرة لتمر. عندما أصبحت على بعد خطوات منها تعرفت إلى السيارة... صدمتها رؤية اندي في المراعي... لكن ما صدمها أكثر وجود فتاة قربه تدعى سيلينا... أجل.

الفتاة ذات الوجه والجسد الجميلين.

التقت عينا السائق وهو يتجاوز سيارتها بعينيها، ولم تبدُ عليه الدهشة بل تجاوزها دون أن يرف له جفن وهي على يقين من أنه عرف سيارتها منذ أن لمحها، من بعيد.

بقيت واقفة لحظات عديدة وهي غير قادرة على الحراك، تشتعل داخلياً بنيران الألم وكأن قلبها توقف عن الخفقان ليغرق في لهب نيرانها المشتعلة.

وقفت بروك تواجه اندي عبر طاولته في مكتبه قائلة:

ـ أنا آسفة... ولكن التظاهر والادعاء انتهيا، إذا شرحت لوالدك أننا اكتشفنا عدم انسجامنا فأنا واثقة من أنه سيتفهم.

كانت تكلمه وخاتم الخطوبة في يدها. فلما وجدته لا يمدّ يده ليتناوله وضعته أمامه. وبعد لحظات من التفكير، مد يده ووضعه في جيبه.

قالت بروك بمرارة:

ـ أتمنى أن تكون قد تمتعت بأمسيتك مع الآنسة بايليس. وأنا سعيدة لأنني عرفت قبل فوات الأوان أنك حتى وخلال خطبتنا الزائفة لم تستطع الابتعاد عن النساء الأخريات.

كان على وجهه قناع، عيناه قاسيتان كصخر التلال... ولم يتكلم لكنه بدا وكأنه ينتظر خروجها، وعندما أصبحت عند الباب قال:

ـ غداً سأسافر لأغيب بضعة أيام... إلى مونريال لحضور مؤتمر... إذا كنت تريدين أن تعرفي.

ـ لا أريد أن أعرف... لا أريد أن أعرف أي شيء عنك... ولا استطيع التفكير حتى بالسبب الذي دفعني إلى القبول بتلك الخطوبة المزعومة.

ـ السبب والدي... أتذكرين؟

ـ أجل أذكر... فوالدك يساوي مئة من أمثالك.

أحنى اندي رأسه قليلاً بسخرية.

لم تعد مباشرة إلى مكتبها... بل ذهبت إلى غرفة السيدات، وهناك جلست مسندة رأسها إلى يديها... تأمل في عدم دخول أحد.

ما إن وصلت في المساء إلى منزلها، وركضت دون أن تحيي أحداً إلى غرفتها، حتى استسلمت لمشاعرها المحطمة... مضت فترة قبل أن تنهض ساعية إلى ترتيب شعرها ومسح آثار الدموع ومن ثمَّ وضع بعض الزينة على وجهها لتخفي شحوبها. بعد ذلك نزلت إلى الطابق الأرضي لتواجه الأسئلة المحتومة. استقبلتها مارغريت في المطبخ بسؤال:

ـ هل ترغبين في التحدث عن الأمر؟

ـ فيما بعد مارغريت... ربما علي أن أخبر والدي... متى...؟

فردت مارغريت ناصحة:

ـ كلما سارعت إلى إخباره كلما كان ذلك أفضل لك.

في غرفة الجلوس كان والدها يسجل الملاحظات، فقالت له:

ـ أبي.

فرفع رأسه لينظر إليها فأردفت:

ـ لقد فسخت الخطوبة.

فقطب حاجبيه!

ـ اوه... وهل لي أن استفهم عن السبب؟

ـ لو قلت إنه عدم الانسجام والاتفاق أأجيب عن سؤالك؟

فتنهد وقد لاحظ آثار الدمع:

ـ يكفي ما قلته على ما أعتقد. هل أنت منزعجة من انهاء الخطوبة؟

بللت شفتيها:

ـ لنقل... انها متبادلة.

أتخبره السبب الحقيقي؟... لا، لا يمكنها فعل ذلك مطلقاً لأن ذلك سيجعله يشعر بالحرج من متابعة مقابلة صديقه لوكربي العجوز. وهي لن تحرمه تلك السعادة التي يحس بها عندما يكون برفقة آبنر، عبس والدها ثانية:

ـ من الغريب أنني كنت اؤمن منذ أول مرة رأيته فيها بأنني أعرف وجهه.

أحست بروك بالذعر. لو أمعن التفكير، فهل ستسعفه ذاكرته يا ترى؟

ـ ربما كما ذكرت يوماً رأيته أثناء زياراتك الجامعية.

ـ ربما، لقد حاولت أن أحب ذلك الرجل كرامة لك. لكن هناك دائماً حاجزاً يحول بيني وبين ذلك.

فيما بعد، بينما كان والدها يراجع مذكراته مع مارغريت، رن جرس الهاتف. فخفق قلبها، أيمكن أن يكون هو؟ تماسكت، لقد انتهى الأمر بينهما... ألم تفهم بعد؟

ـ بروك... هذا أنا آبنر... عزيزتي، أخبريني اندي... ولكن يا عزيزتي لماذا؟ لقد بدوتما متحابين كثيراً.

ـ ألم يخبرك اندي السبب سيد لوكربي... لقد وجدنا... أننا لم نتفق. أنت تفهم... أذواقنا مختلفة ونظراتنا للحياة... و... حسناً... كل شيء تقريباً.

ـ لكن يا بروك... الحب يتغلب على كل الصعاب. أمهليه بعض الوقت فستكبران معاً وتصبح خلافاتكما بالنسبة لكما أمراً تضحكان عليه. بالتأكيد أنت تفهمين هذا؟

أحست وكأنها تغرز سكيناً في قلبها.

ـ لن تنجح علاقتنا سيد لوكربي. لذا قررنا انهاء الأمر قبل أن... أن... يزداد الضرر.

ـ بروك... هل هذا كل شيء حقاً؟ أم أن هناك ما سبّب فراقكما؟

لا شك في أنه يفكر في الحادثة، ودور اندي فيها! أبعدت بقدر ما أوتيت من قوة إقناع تفكيره عن هذه النقطة. بدا أخيراً مقتنعاً بقولها. بعد أن أقفل الخط. أحسّت بالبرودة والارتجاف وكأنها كانت تتجول ردحاً من الزمن في الصقيع.

في الصباح التالي، قابلت اندي اثناء خروجه من المكتب، فابتسمت له... لكن رده كان نظرة باردة رافضة. حسناً، ماذا تتوقع... ألم تقل له انها لا تريد معرفة شيء عنه؟

عند الثامنة صباحاً خرج دايفد لينقل شاحنة إلى مونتريال تاركاً إياها وحدها في القسم، فوقع عبء العمل كله على كاهلها وشعرت بأنها تسيطر على كل شيء.

كانت تترقب وصول أحد السائقين لينقل حمولة زراعية إلى هاليفكس. مرَّ الوقت والسائق لم يصل... ولما طال الانتظار أنبأها حدسها بأن شيئاً ما قد وقع. ولكن ما العمل والحمولة يجب أن تنطلق في وقتها المحدد.

عندما رن الهاتف، قفزت إليه:

ـ شركة لوكربي... بروك ستون تتكلم.

ـ أنا جون انسة ستون... لدي للأسف أخبار سيئة لقد تعطلت شاحنتي. وأتيت في سيارة صغيرة لاتصل بالكاراج. وسيرسلون من يصلح الشاحنة ولكن قد تمضي ساعات قبل أن أتحرك للعودة.

ـ لكن يا جون... تلك الحمولة إلى هاليفكس. يجب أن تصل في موعدها كي تشحن بالباخرة إلى المكسيك.

ـ ألا أعلم هذا آنسة ستون؟ لقد قلقت بشأنها كثيراً فأنا واقف منتظراً. فثمة حمولة آلات زراعية يجب أن تصل في الغد إلى هناك.

ـ تقول البرقية، ان المشترين سينتظرون حتى يستلموا الحمولة.

ـ اسمعي انسة ستون... هل السيد دايفد موجود؟ لا...؟ حسناً سيد اندي... ولا هو؟ انسة ستون لديك مشكلة اذن!

ـ اوه يا جون ليت تود يعرف قيادة الشاحنات. ماذا أفعل؟

ـ لا سائق موجود الآن ولن يأتي أحد في وقت قريب اذن ما عليك سوى القفز إلى مقعد السائق وقيادة الشاحنة بنفسك، انسة ستون...

ـ حسناً، واجبي أن أقلق لا واجبك. لديك ما يكفيك سأجد الحل.

ـ هذه الحمولة يجب أن تنطلق يا آنسة.

وأقفل الخط.

هل تجرؤ... ضربت بالقلم على الطاولة... هل تطلب آبنر لوكربي عله يعرف أحداً يقود الشاحنة.

ـ أمر طارىء يا عزيزتي... حمولة هاليفكس؟ أجل أعرف عنها اندي يخبرني بكل شيء يومياً... أجل أعلم أنها مهمة.

ـ تقول الاتفاقية سيد لوكربي إننا سنتقاضى أجراً مرتفعاً لأن الشحنة مهمة... فهل بالإمكان الاتصال بأي شركة لاستعارة سائق؟

ـ لن تجدي أية مساعدة في هذا الوقت القصير. خاصة في الصيف عندما يأخذ الناس عطلاتهم، بما فيهم سائقو الشاحنات... امنحيني عشر دقائق، يا بروك... وسأجد حلاً.

لما مضت الدقائق... لم تصلها أية مخابرة. بدأت بالقلق فامتدت يدها إلى الهاتف، عندما سمعت صوت آبنر لوكربي في الممر. وفتح باب مكتبها ودخل يرتدي ثوب العمل الخاص للوكربي يعتمر قبعة.

ـ أنا جاهز يا عزيزتي... أين الشاحنة؟

ـ أنت سيد لوكربي؟... لا يمكن... لا تستطيع!

حاول فرض جو من السلطة، ولكن ضحكته أذهبتها أدراج الريح.

ـ اوه... من يقول انني لا أقدر؟ الفتاة التي سيتزوجها ابني؟

ـ انه لن...

توقفت... يبدو كأنه نسي في غمرة انفعاله أنهما ما عادا حبيبين.

ـ لن أدعك تذهب سيد لوكربي! فلن أسامح نفسي أبداً... لو... أن شيئاً حدث...

ـ مثل ماذا؟

ـ أن تتعطل الشاحنة... مثل ما حدث لشاحنة جون.

ـ إن الشاحنة التي يقودها ليست لشركة لوكربي بل هي شاحنة مستأجرة فشاحنة لوكربي لا تتعطل أبدا. والآن هيا أيتها الشابة. إذا أضعنا وقتنا الثمين

هذا لن استطيع الانطلاق في الموعد المحدد، حضري الأوراق التي احتاجها.

وبينما أخذت بروك، متوردة الخدين، تراجع السجلات، وقف آبنر لوكربي عند النافذة... وقال:

ـ كنت انتظر هذه اللحظات... انه حلمي، أن أقود شاحنة مرة أخرى. أتسلقها أتولى السيطرة عليها، أتعلمين عندما أشاهد شاحنة تنطلق، جزء مني ينطلق معها.

استدار إليها:

ـ من صفات شركة لوكربي الصدق لذا سأعمل على أن تحافظ على سمعتها هذه. هل حضرّت الأوراق يا عزيزتي؟

أصبحت الأوراق جاهزة في يد بروك لكنها تمسكت بها:

ـ سيد لوكربي... أطلب منك مرة أخرى... أرجوك... لا تفعل...

لكنه لم يكن يصغي إليها:

ـ هيا... أريد نسخة المرسل إليه... سأحصل على التوقيع باستلام البضاعة عليها، ارجعي نسخة إلى الملف. كل شيء على ما يرام يا عزيزتي!

استبد بها القلق فكيف لها أن تدعه يذهب:

ـ كل شيء على ما يرام... هيا بنا نذهب

رافقته إلى الباحة ومنها، انطلق بهما طوم بوساطة الڤان إلى محطة الوقود ومن ثمّ إلى فناء انطلاق الشاحنات.

نزلت بروك بسرعة راكضة نحو مكتب تود. ولكن الموظف أعلمها أنه خرج وسافر إلى أوتاوا. وأسرعت بروك بالعودة محبطة، فقد كان رجاؤها الأخير أن يقنع تود والده بالعدول عن القيام بهذا العمل وهناك... خلف المحطة كان ابنر يصعد إلى الشاحنة... فقالت وهي تنظر صعوداً إليها:

ـ هل أرافقك سيد لوكربي؟

ـ لا... يا فتاتي... لا... وماذا أفعل بفتاة مثلك قد تلهيني

بالحديث؟

ـ سأبقى صامتة سيد لوكربي.

فضحك...

ـ عودي واهتمي بمكتبك... أنا بخير... وأشعر بالروعة هنا. لقد عدت إلى حيث أنتمي... مسؤولاً عن شاحنة.

ـ وماذا سيقول طبيبك؟

ـ لا يهمني كل الأطباء. ألم أقل لك ان المرء يموت إن قابل طبيباً أو لم يقابله وقيادة الشاحنات مصدر سعادتي في هذه الحياة!

رفع إبهامه إلى الأعلى وانطلق بالشاحنة إلى الخارج ببطء وحذر ومن ثَمَّ إلى الطريق.

غطت بروك وجهها بيديها وقالت لطوم:

ـ اوه يا طوم... ماذا سأفعل؟ ماذا سأقول للسيد اندي؟

ـ لا تقلقي انسة ستون... سيكون السيد لوكربي على خير ما يرام. إنه قوي. وسوف ينجح.

وشحب وجه دايڤد عندما علم بالخبر ذلك المساء بعد عودته.

ـ وهل أخذ العم آبنر تلك الحمولة إلى هاليفكس؟ بروك كيف سمحت له؟ ألا تعلمين حالة قلبه؟

ـ دايڤد... لم استطع منعه. صدقاً... لم استطع... أضطررت إلى الاتصال به لأن أحداً غيره لم يكن موجوداً، وفي اعتقادي أنه سيؤمن سائقاً ما من مؤسسة أخرى.

ـ يطلب سائقاً من مؤسسة أخرى والحمولة خاصة بشركة لوكربي؟ هل تخالينه يسمح لأي مؤسسة القيام بعملنا... لكن كيف لك أن تعرفي... لم يبق الآن أمامنا سوى الدعاء.

رن جرس الهاتف في غرفتها فأسرعت راكضة تمسك السماعة، بيد مرتجفة:

ـ بروك حبيبتي لقد وصلت... قلت لك انني سأنجح... وسأعود

حالما أفرغ الشاحنة.

ـ لكن سيد لوكربي، ألا يمكن أن تبقى حيث أنت فتنام في فندق لترتاح، فلِمَ العجلة في العودة؟

ـ سأقوم بعملي على أكمل وجه... وسأنام على السرير في مقصورة السائق... انه مريح وفيه كل ما يحتاج الرجل... وساحصل على قليل من الطعام. ثم أتابع طريقي... ليتك تعلمين يا حبيبتي كم أمتعتني الرحلة. أخبري خطيبك المتعجرف، أنني نجحت.

ـ سيد لوكربي إليك دايفد.

مررت السماعة إليه... بعد حديث قصير مع عمه سألته:

ـ ما رأيك لو نتصل باندي لنخبره عن والده؟

ـ لا فائدة من الأمر. أعتقد أن عمي سيصل بعد الظهر باكراً.

فيما بعد بينما كانت تهيء نفسها للنوم أحست بالارتباك فليتها لم تُصغ لدايفد، وليتها اتصلت باندي إذ يجب أن يعرف... يجب.

قبل طعام الفطور صباحاً اتصلت بدايفد، الذي سألته عن رقم هاتف الفندق وقد أعطاها إياه وهو يحسبها تريد سماع صوت حبيبها.

سمعت صوت خطيبها السابق، ولكن من الصعب وصفه بالحبيب.

ـ بروك ستون تتكلم.

ـ هذا ما ظننته. حسناً؟

ـ هل تناولت فطورك؟

ـ منذ بعض الوقت... لماذا؟ لماذا تريدين معرفة هذا؟

ـ اندي... أنا... لقد تركت والدك يقود شاحنة.

قال بعد صمت طويل:

ـ أيعقل أن ما اسمعه صحيحاً. أخبريني من جديد، وببطء، كي يستوعب عقلي النائم الخبر.

ـ لقد تركت والدك يقود شاحنة.

بدا وكأنه يحبس أنفاسه فأكملت:

ـ تعطلت شاحنة جون، مسبباً لنا بذلك أزمة فقد تأخر نقل الحمولة الأخيرة التي كان لا بدَّ من انطلاقها لأن الباخرة تنتظرها للشحن.

ـ ليست... تلك الشحنة من الآلات الزراعية التي يجب أن تنقل إلى المكسيك عبر هالفيكس

ـ هي عينها يا اندي... دايفد كان غائباً يوصل حمولة شاحنة إلى أوتاوا. ولم أجد أي سائق. ولم أعرف ماذا أفعل فاتصلت بوالدك وقد كنت أسعى إلى مشورته في استئجار سائق من مؤسسة أخرى.

ـ أبي يتخلى عن عقد للوكربي لمؤسسة أخرى! ألا تعرفين عن سمعتنا في الصدق، التي تجري في دم العائلة.

الدموع التي كانت تجري على خديها ظهرت في صوتها:

ـ لا... لم أكن أعرف يا اندي... ليس إلى هذه الدرجة على أي حال. لقد بدا سعيداً بالأمر. وكله ثقة بنفسه.

ـ يا إلهي أيتها الفتاة ألا تعرفين حال قلبه؟

ـ اندي... لقد نجح، واتصل بنا مساء الأمس. وسيصل سليماً... قال انه سينام في الشاحنة... وكان سعيداً يا اندي!

ـ سأترك المؤتمر وأعود.

ـ اندي... لا! لا حاجة لهذا! لقد قال دايفد ان الأمر سهل بشاحنة فارغة.

ـ سأعود.

وأقفل الخط... وكانت الساعة قد قاربت منتصف النهار عندما توقفت سيارة اندي أمام المكاتب. وفتح باب دايفد ليسأل:

ـ ألم يصل بعد؟

فأسرعت بروك إليه:

ـ لن يتأخر يا اندي. لا بد أنه في طريق العودة. وقد يصل بين لحظة وأخرى.

عيناه الباردتان جعلتاها تجمد:

ـ هل لك أن تبقي خارج الموضوع؟

ـ لماذا؟ لماذا أبقي خارج الموضوع؟ ألانني لست فرداً من أفراد العائلة؟ ولن أكون بعد الآن؟

نظر إليها دايفد، فلاحظ يدها الخالية من الخاتم فاتسعت عيناه.

تقدم نحوها:

ـ لماذا؟ لأنك كنت حمقاء غبية فتركته يقود شاحنة، وهذا هو السبب. كان يجب أن تقومي بأي شيء لتمنعيه من الذهاب.

ـ هل أثقب الإطارات مثلاً؟ وماذا بشأن افتخار العائلة بسمعتها التي تضعونها جميعاً في رأس القائمة؟ أكان يجب أن أتعلق بحذائه، أو أطلب من الطبيب تقييده إذ لا طريقة أخرى كانت ستمنعه.

ـ وماذا عن تود؟

ـ لقد قيل لي انه رفض تعلم قيادة الشاحنات.

ـ رفض في البداية لكنني أجبرته على التعلم.

قال دايفد:

ـ لم تكن تعرف هذا يا اندي.

ردت بروك:

ـ على كل الأحوال... تود في إجازة فقد سافر إلى اوتاوا.

ـ ثمة أناس كثيرون قادرون على المساعدة كسوزي زوجة تود التي لديها اتصالات عديدة مع الجميع.

فصمتت بروك، وقال دايفد:

ـ هيا قولي له... لقد ذهبت هي الأخرى مع زوجها.

قال اندي بسرعة:

ـ سأذهب إلى الكاراج لانتظر وصوله.

ركضت بروك وراءه:

ـ أنا قدمة معك.

بينما كان يوقف السيارة سمعت صوت هدير شاحنة، فقفزت من السيارة راكضة إلى الفناء ولحقها اندي... فشهقت:

ـ لقد عاد.

وركضت إلى باب السائق، وصاح آبنر:

ـ قمت بالرحلة يا بني... لقد قمت بها.

فتح نصف الباب، ثم ضغط بيده على صدره.

ـ ذلك الألم ثانية... لعنه الله... هذه هي المرة الثالثة... يا إلهي... ولدي...

تسلق اندي الدرج يصيح طالباً المساعدة فأسرع دايفد الذي قال له اندي:

ـ أمسك قدميه.

أنزلا الجسد المسترخي من الشاحنة. بعد ذلك خلع اندي سترته وجعلها وسادة تحت رأس أبيه، الذي غدا وجهه رمادياً أما شفتاه فتلاشى لونهما، صاح اندي:

ـ طبيب... اسعاف... أي شيء.

ركض دايفد.

في هذا الوقت فتح آبنر عينيه وبدأ يتكلم بهدوء مما دفع الجميع إلى حبس أنفاسهم ليصغوا إليه:

ـ الوقت يداهمني يا ولدي... اسمع فقط. أيمكن؟ لقد تمتعت بالقيادة... بكل دقيقة منها. كنت أعلم أنها مخاطرة... ولكنها كانت حلمي... كانت حلمي الدائم منذ... منذ...

أغمض عينيه، ثم فتحهما، وشهق نفساً أخيراً.

ـ بروك... أبلغتي تحيتي لستانلي... وقولي له إنه كان أعز أصدقائي.

جرت الدموع من عيني بروك وهزت برأسها.

ـ اندي... يا بني... أخبرها الحقيقة.
كان صوته الهامس لا يكاد يُسمع...
ـ أنا أعرف لماذا فسختما الخطوبة. لست غبياً... أخبرها الحقيقة!
والتوى رأس آبنر على كتف ابنه، ثم ارتفعت يده وسقطت دون حياة.
بعد ثلاثة أسابيع... استدعى اندي بروك إلى مكتبه ولم تكن قد شاهدته منذ يوم وفاة أبيه، وكان دايفد وسوزى وزّعا عمل اندي فيما بينهما.
قال لها دايفد يوماً:
ـ لديه مشاكل تتعلق بالإرث. لقد ورث عن أبيه إدارة كل فروع الشركة التي زارها واستلمها رسمياً الآن. وقد عرض على تود الشراكة ولكنه لم يهتم.

وواجهت بروك اندي عبر الطاولة، فوجدت عينيه مظللتين بالحزن ووجهه متعباً ومرهقاً.
ـ أرجوك اجلسي.
جلست لأنها أحست بضعف في ساقيها، ولأنها تعبة هي أيضاً من الانتظار... ولكن انتظار ماذا؟

كانت حزينة كل الحزن وقد زادها ضيقاً إحساسها بالذنب لأنها كانت المسؤولة عن ذهاب لوكربي الكبير في تلك الرحلة. لكن المنطق السليم كان يؤكد لها أنه لم يكن لديها القدرة على تغيير المحتوم.
تقدم منها ببطء وكأنه نمر مسجون وسألها:
ـ كيف كان وقع الخبر على والدك.
ـ كان وقعه سيئاً للغاية.
عندما نقلت إليه رسالة صديقه دفن وجهه بين يديه، وأجهش بالبكاء. ولما حاولت مواساته نفضها بعيداً عنه. فتركته يحزن وحده ولكن مارغريت، زوجة المستقبل، نجحت حيث فشلت الابنة...

وأبلغت بروك هذا كله لاندي الذي أخذ يستمع دون أن يعلق على شيء

ودون أن يُظهر أي تعبير على وجهه.
ـ هل أنت حرة هذا المساء؟ أيمكنك المجيء إلى منزلي؟ ثمة شيء لا بد من إطلاعك عليه.
عرفت على الفور ما هو هذا الشيء... فلا شك في أنه سيطلب منها الاستقالة، لكنه سيكون لطيفاً معها ويتركها في العمل حتى تجد آخر.
وسألته:
ـ ألا يمكن أن تطلعني على ما تريد الآن؟
ـ آسف... الأمر مستحيل... هل ستأتين؟

فهزت رأسها موافقة واتفقا على السابعة والنصف.
أخبرت بروك مارغريت إلى أين ستذهب، ولكنها قالت لوالدها انها ستقوم بنزهة.
فتح لها اندي الباب بنفسه... بالطبع فلم يعد في المنزل أحد سواه... فالرجل العجوز المضياف المحب رحل إلى الأبد.
أدخلها إلى غرفة الجلوس. فجلست على الأريكة وهي لا تشعر بالراحة.
كانت قد ارتدت ثوباً بسيطاً لونه أبيض وأزرق ذا ياقة منخفضة وحذاء أبيضا. بدت بثوبها هذا وكأنها ذاهبة للقيام بمقابلة، وما تقوم به في الواقع أشبه بمقابلة، إذ ليس بينهما سوى التزام شكلي فلا عناق، ولا ضحك ولا أنفاس متقطعة.
قال اندي بأدب:
ـ أشكرك على المجيء.
ـ إنه لمن دواعي سروري.
تهالك رامياً جسده على الكرسي الذي اعتاد والده الجلوس فيه.
ـ تلك الكلمات الأخيرة التي تفوه بها والدي. هل سمعتيها؟
فهزت رأسها، ولكنه كررها:

ـ أخبرها الحقيقة!

ساد صمت عميق، وقال أخيراً وعيناه مغمضتان، ورأسه مستند إلى ظهر المقعد.

ـ إخبارك بالحقيقة يؤلمني كثيراً. لكنني يجب أن أحقق أمنيته الأخيرة.

صمت طويلاً... فسألته بصوت ضعيف:

ـ أية حقيقة يا اندي؟

ـ حقيقة حادث والدك.

حبست بروك أنفاسها. فتابع:

ـ لم أخبر أحداً من الناس فحتى أفراد عائلتي يجهلون الحقيقة. لكنني الآن يجب أن أخبرك لأنها رغبته الأخيرة.

فتح عينيه وتابع:

ـ أصيب والدي بنوبة قلبية سيئة جداً فاضطُر إلى ملازمة الفراش أربعة أشهر ليستعيد عافيته، بعد تلك الفترة قلق والدي أشدّ القلق لأنه خشي أن يخسر مهارته في القيادة كما خشي أن ينسى كيف...

رفع عينيه إليها ثم تابع:

ـ منعته عن القيادة فدب بيننا شجار. ولما نصحته باستشارة الطبيب أولاً قال إن لم ترافقني فسأخرج وحدي.

صمت قليلاً، ثم تنهد وأكمل:

ـ في البداية، أخرجت الشاحنة بنفسي... ووجدت شارعاً هادئاً تركته يقودها فيه. قاد ببطء في البداية، ثم أسرع، فأسرع، وضد رغبتي عاد إلى البلدة. وأوقف السيارة بكل نظام أمام تقاطع طريق ليسمع للمارة بالمرور في تلك الاثناء ظهر رجل يسير وحيداً، غير فجأة اتجاهه وخرج إلى الشارع في اللحظة التي انطلقت فيها الشاحنة.

أسرع في كلامه وكأنه يريد أن ينتهي من هذه الذكرى المؤلمة!

ـ حدث كل شيء بسرعة في مكان لا يبعد كثيراً عن ممر المشاة ولو لم يضغط بقدمه بقوة على المكابح لكانت النتيجة أسوأ مما هي... وضربت

الشاحنة الرجل...

صاحت بروك:

ـ والدي؟

ـ أجل... والدك. لقد طار من الضربة وأصيب إصابة خطيرة، وشحب وجه أبي، وظننت أن نوبة القلب قد عاودته فقررت على الفور تحمل المسؤولية. فدفعته عن المقود وجلست مكانه، وقلت له أن يبقى حيث هو وألا ينزل مهما كانت الظروف.

ـ ثم ذهبت إلى والدي...

ـ نعم، لكن بعض الناس وصلوا قبلي إليه، فدفعتهم عنه، ورفعت رأسه فإذا به صاح فاتح عينيه. لكنه لم يلبث أن أغمضهما.

ـ لهذا أقسم منذ لحظة شاهدك فيها أنكما التقيتما من قبل؟

ـ قال... وقد سمعه عشرات الأشخاص... «الغلطة غلطتي... غلطتي كنت أفكر في عملي» ثم فقد الوعي. وأنت تعرفين الباقي.

ـ لقد ذكرت الصحف الحادث لكنني لا اذكر اسمك.

ـ لقد قيل للصحف إنه أحد سائقي لوكربي... وكنا قد أحلنا القضية برمتها إلى شركة التأمين.

ـ أعرف... ولقد تعاملوا مع القضية عبر محامي والدي.

ـ واعترف والدك ثانية بمسؤوليته، لذا لم يعد له قضية.

ـ لكنكم لم تقدموا له تعويضاً.

ـ لكننا قدمنا تعويضاً رغم اعتراض شركة التأمين، لكن والدك رفضه.

ـ هل أنت متأكد؟ لم يبلغني عن هذا.

ـ وهل يعرض عليك كل مراسلاته؟

ـ أنا اسفة... هذا يعني أنك لست بريئاً فقط بل... بطل...

لم تبتعد عيناه عن عينيها. فتابعت:

ـ كنت أوفى ابن لوالدك. لقد حميته وألقيت عبء المسؤولية على عاتقك.

حافظ اندي على صمته ثم هب واقفاً واتجه إلى النافذة.

ـ لقد وافق على الخداع فقط من أجل الشركة... ولكنه لم يسامح نفسه لأنه اختبأ ورائي.

فقالت بروك بصوت خفيض مرتجف:

ـ ولماذا تركتني اتهمك، أنعتك بكل النعوت السيئة حتى فسخ خطوبتي؟ أكان ذلك ما تريده أن أفسخ الخطوبة؟

تصلّب ظهره، واشتعلت غضباً فركضت تقطع المسافة بينهما، لكنه لم يلتفت إليها... وصاحت به:

ـ لقد خدعتني... أيها المخادع... المنافق!

أخذت تضرب ظهره براحتيها:

ـ لماذا طلبت يدي؟ أبسبب ضميرك المثقل بعقدة الذنب؟ أم أنها كانت طريقة للتعويض عما فعلتموه بأبي؟

فاستدار إليها ليمسك برسغها بقساوة:

ـ ومن طلب يد الآخر؟ أنا أذكر أنك أنت من طلبتني بطريقة ملتوية. ألستِ من أخبر تود عن الخطوبة ثم رحتِ تتباهين في أنك الفتاة التي «أوقعت» بي حين فشلت الأخريات.

ـ لكنك طلبتَ مني الزواج فيما بعد... ألم تطلبني؟ وهذا يعني أنك فعلت ما فعلت لإرضاء ضميرك المثقل بالذنب.

ـ أنا لست بمذنب. ألم أخبرك أنني لم أرتكب خطأ؟

تغلب عليها بالمنطق، وأحست بارتخاء أطرافها. فتركت يده معصمها الذي أحست بألم فيه. ما زالت تفكر بتلك الطريقة السابقة إذ لم تستطع التخلص من إدانته على ما أصاب والدها... لكن الآن لا بد من إعادة الأمور إلى وضعها الصحيح في دماغها.

هذ «الشيء» يجب أن يصدر عنها... لقد قام هو بدور البطل بالقائه العبء على عاتقه عوض أبيه المريض... فرفعت نظرها إليه. إلى الرجل الذي أحبته... وما زالت تحبه إلى الآن أكثر من أي وقت آخر. ابتلعت

ريقها:

ـ اندي... قبل أن أذهب... أريدك أن تعرف كم أحبك. لقد أحببتك منذ التقت عيناي بك... حسناً... أنت لا تريد الزواج مني... فأنت تحب سيلينا، ربما أكثر مما أحببتني وأنا أقبل بذلك ولكن كان علي أن أخبرك أنني أحبك... وشكراً على كل شيء...

اتّجهت إلى الباب لكنه تبعها، وأدارها إليه ثم احتواها بين ذراعيه وعانقها بكل الرغبة، العاطفة والشوق الذي كان يكبحه كلما احتواها. مرات ومرات ومرات حتى اضطرت إلى التوسل ليتركها.

وتمتم:

ـ اه يا حبي... أوَ ظننتي سأتركك تخرجين من حياتي؟ هل تظنين أنني كنت سأسمح لك بالابتعاد عني؟ أبداً ما كنت لأتركك. فمنذ أن رأيتك بل منذ أن رأيت مؤخرة رأسك، وقعت في حبك. لذا اتبعتك أميالاً وأميالاً.

ـ ألا أعرف هذا... لقد بقيت أشاهد شاحنتك في مرآتي وأردت أن أشتمك.

ردَّ رأسه إلى الوراء ضاحكاً، فبدا وكأنه صغُر سنوات وكأن مشاكل الأيام الأخيرة قد ولت... وضحكت معه... في تلك اللحظة تقسم أنها قد سمعت صوتاً يتنهد بارتياح...

قال لها:

ـ عديني بشيء... والدك يجب أن لا يعرف بهذا مطلقاً، يجب ألا يعرف أن الرجل الذي أصبح أفضل اصدقائه هو من سبّب له الإصابة.

لكنها هزت برأسها:

ـ يجب أن أخبره يا اندي، فعندما نتزوج أريده أن يحبك كابنه تماماً.

ارتفعت يده إلى فمها:

ـ دعيني أتحمل اللوم... فهو مع الوقت سيتكيف مع الواقع. لكن لا أريد أن يفسد شيئاً ما ذكرياته الطيبة عن والدي.

تعلقت به لفترة طويلة... تدير في رأسها ذكرى تلك التضحية التي قام وما زال يقوم بها الرجل الذي تحبه. وكل هذا ليحمي سمعة والده وذكراه.

نظرت إليه:

- لن ينجح هذا يا اندي... فيوماً ما يجب أن أخبره الحقيقة لأنظف اسمك في عينيه وليعرف أي صهر رائع هو أنت.

- أتعلمين شيئاً انسة ستون؟ ستتزوجيني بسرعة، قبل أن تستطيعي الهرب مني ثانية.

أفلتت من بين يديه:

- عليك أن تقبض علي إذا استطعت!

قبض عليها عند الباب، وحملها بين ذراعيه إلى الأريكة. ووضعها فوق الوسائد وهو يقول:

- ما هو ملك للوكربي يبقى للوكربي.

- إنه مثل العائلة الأعلى. لقد قال لي والدك هذا.

- إذن فاحذري... قريباً ستكونين لي، ستكون ملك لي عيناك اللامعتان الضاحكتان وأنفك الوقح الدقيق وثغرك المغري الذي لا يقاوم... كل شيء فيك سيصبح لي!

فهمست وهي تمرر اصبعها على فكه:

- متى؟

- الآن يا حبي... أنت جزء مني، من أفكاري من حياتي... من نفسي... لذا لا أقوى على العيش بعيداً عنك... فهل يجيب هذا عن سؤالك؟

- أجل... آه... أجل.

واشتدت ذراعاه المحيطتان بها... وضاعا في عالم خاص بهما.

●●●